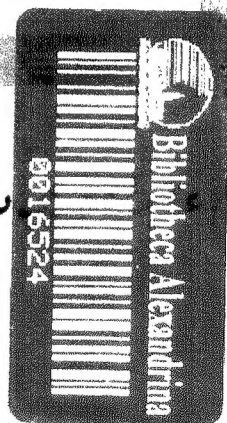


الجامعة



الروح السعيد

درسين



دار الآداب

الموت السعيد

البيركامو

الموت السعيد

رواية

ترجمة: عناية طه محمد الدين

منشورات دار الآداب - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١

الطبعة الثالثة

١٩٨٣

القِسْمُ الأوَّل

الموت الطبيعي

الفصل الأول

كانت الساعة العاشرة صباحاً ، وكان باتريس مرسو يسير بخطى منتظمة نحو دائرة زغرو . في هذه الساعة كانت الممرضة قد خرجت الى السوق ، وكانت الدائرة مقفرة . كان ذلك في نيسان ، في صبيحة ربيعية جميلة متألثة وباردة ، ذات زرقة صافية ومثلجة ، وشمس ساطعة باهرة ولكنها من غير حرارة . امام الدائرة ، وبين الصنوبرات التي كانت تغطي الكتبان ، كانت اشعة صافية تسيل على الجذوع . كانت الطريق مقفرة ، وكانت تصعد قليلاً . وكان مرسو يحمل حقيبة بيده ويتقدم في هالة هذا الصباح العالمي مخترقاً صوت خطاه الجاف على الطريق البارد وصرير قبضة حقيبته المنتظم .

قبل الدائرة بمسافة قصيرة ، كانت الطريق تتفتح على ساحة صغيرة مليئة بالمقاعد والحدائق . وكانت نباتات ابرة الراعي الباكورية الحمراء وسط الاصبار الرمادية ، وزرقة السماء وجدران السور المطلية بالكلس ، كان ذلك كله من الغضاضة والطفولة بحيث جعل مرسو يتوقف لحظة قبل ان يستأنف الطريق الذي كان ينحدر من الساحة نحو دائرة زغرو . توقف امام العتبة ولبس قفازيه ، وفتح الباب الذي كان العاجز قد تركه مفتوحاً واغلقه بالطبع . وتقدم في الممر حتى إذا بلغ الباب الثالث الى اليسار دق عليه ودخل . كان زغرو قابضاً هناك ، على مقعد ، وعلى جدعات ساقية غطاء ، امام المدفأة ، تماماً في المكان الذي كان مرسو يحتله ليومين مضياً . كان يقرأ ، وكان كتابه يستقر على غطاءه بينما كان يحدق بعينه المستديرتين اللتين لم تكونا تنمان عن اية دهشة ، بمرسو الواقف الآن امام الباب المغلق . كانت ستائر النوافذ قد سحبت وكانت تستقر

على الأرض وعلى الأثاث وعلى زاوية الأشياء برك من الشمس . وخلف النوافذ ،
كان الصباح يضعك على الأرض المذهبة والباردة . وكان فرح كبير مثلج ،
وصرخات عصافير ثاقبة ذات صوت غير واثق وفيض من نور لا هوادة فيه ،
تضفي كلها على الصبيحة وجهاً من البراءة والحقيقة . كان مرسو قد توقف وأحس
بحرارة الغرفة الحائقة تأخذ بخناقها واذنيه ، فبالرغم من تبدل الطقس ، كان
زغرو قد أشعل ناراً لاهية ، وكان مرسو يحس بدمه يصعد حتى صدغيه ويضرب
أطراف أذنيه . وكان الآخر ، صامتاً ما يزال ، يتابعه بعينيه . ومشى باتريـس
نحو الصندوق من الناحية الأخرى للمدفأة ، ومن غير أن يلقي نظره على العاجز
وضع حقيبته على الطاولة . واذ وصل هنا ، أحس بارتعاش خفي عند عرقوبيه .
فتوقف ووضع في فمه لفافة أشعلها بطريقة خرقاء بسبب يديه المقفرتين .
وسمع حركة خفيفة وراءه . التفت واللفافة بعد في شفتيه . كان زغرو ما
يزال ينظر إليه ، ولكنه كان قد أغلق اللحظة كتابه . وبينما كان مرسو يحس
بالتار تلهب ركبتيه حتى الألم ، كان يقرأ العنوان مقلوباً « رجل البلاط »
لبلتازار غراسيان . وانحنى من غير تردد على الصندوق وفتح . كان المسدس
يلمع بجميع منحنياته ، سواداً على بياض ، كقط معتنى به . وكان مرسو ما يزال
يمسك برسالة زغرو وقد أمسكها بيده اليسرى والمسدس باليمنى . وبعد تردد ،
دس السلاح تحت ذراعه اليسرى وفتح الرسالة . كانت تحتوي على صفحة واحدة
من ورق كبير القطع مغطاة ببعض الأسطر فقط بخط زغرو الكبير المقرن :

« انني لا اقتل الا نصف انسان . وبودي ان لا يحفظ احد علي ضغينة من
ذلك وان يجد في صندوق الصغير اكثر كثيراً مما يلزم للتعويض على أولئك الذين
خدموني حتى الآن ، بالإضافة الى ذلك ، فان بي رغبة في ان يكرّس لتحسين
نظام الحكوميين بالاعدام . ولكني أشعر ان ما اطلبه كثير . »

طوى مرسو الرسالة وهو منقبض . وفي تلك اللحظة ، اتى دخان سيكارتة
يخزّ عينيه بينما كان قليل من الرماد يتساقط على المغلف . ونفض الورقة ، ووضعها

بشكل بارز على الطاولة، واستدار ناحية زغرو . وكان هذا ينظر اللحظة الى المغلف بينما ظلت يدها القصيرتان المصليتان تحيطان بالكتاب . وانحنى مرسو وادار مفتاح الصندوق واخذ حزمة الاوراق التي لم يكن يرى منها سوى حافتها من خلال غلافها المصنوع من ورق جريدة . وفيما كان سلاحه تحت ذراعه ملأ بيد واحدة حقيبته بانتظام. كان هناك اقل من عشرين رزمة من فئة المئة. وابقن مرسو انه كان قد أحضر حقيبة اكبر مما يجب. وترك في الصندوق حزمة بثنة ورقة . واذا أغلق حقيبته ، ورمى لفافته التي لم يستهلك سوى نصفها في النار ، امسك المسدس بيده اليمنى واقترب من العاجز .

كان زغرو ينظر الآن الى النافذة ، وسمعت سيارة تمر برفق امام الباب ، يرافقها صوت مضغ خفيف . وكان زغرو ، من غير ان يتحرك ، يبدو وكأنه يتأمل الجمال اللانساني كله لهذا الصباح النيساني . وحين احس فوهة المسدس على صدغه الايمن ، لم يعول عينيه . ولكن باتريس الذي كان ينظر اليه رأى عينيه تتلثان بالدموع . وكان هو الذي اغلق عينيه . تراجع خطوة الى الوراء واطلق . ظل لحظة مستندا الى الجدار وعيناه ما تزالان معلقتين . فاحس ان دمه ما فقه يخفق عند اذنيه . ونظر ، كان الرأس قد سقط على الكتف اليسرى والجسم لم يكسد ينحني ، حتى ان زغرو لم يكن يرى بعد ، وانما كان يرى فحسب جرح هائل في تضاريس دماغه من عظم ودم . واخذ مرسو يرتعش ، واستدار حول المقعد وتلمس اليد اليمنى فجعلها تمسك بالمسدس ورفعها الى مستوى الصدغ ثم تركها تسقط . سقط المسدس على ذراع المقعد ومن ثم على ركبتى زغرو . وفي هذه الحركة لاحظ مرسو فم العاجز وذقنه. كان يحمل التعبير الرصين والحزين نفسه اذ كان ينظر الى النافذة . وفي هذه اللحظة ، انبعث صوت بوق حاد امام الباب . ومرة اخرى ، سمع النداء اللاحقيقي . ولم يتحرك مرسو الذي كان ما يزال منحنيًا على المقعد . وانبا انطلاق سيارة برحيل الجزار . وأخذ مرسو حقيبته ، وفتح الباب الذي كانت قبضته تلمع تحت شعاع شمسي ، فخرج خافق الرأس جاف اللسان ، واجتاز باب الدخول ، ومضى بخطى كبيرة. لم يكن هناك

أحد ، ماعدا فريق من الاولاد عند زاوية الساحة الصغيرة . وابتعد . وحين بلغ الساحة ، احس فجأة بالبرد فارتعش تحت سترته الخفيفة . وقد عطس مرتين فامتأ الوادي الصغير باصداً واضحة ، ساخرة ، كان بلور السماء يرتفع بها رويداً رويداً . وبالرغم من انه كان يترنح قليلاً ، فقد توقف وتنفس بقوة . ومن السماء الزرقاء كانت تتساقط ملايين الابتسامات الصغيرة البيضاء . وكانت تلعب على الاوراق التي كانت مائتال مخضلة بالمطر على فلبس المرات الرطب ، وتنداح نحو البيوت ذات القرميد الدموي الغض ، وتصعد بمنحة نحو بحيرات الهواء والشمس حيث كانت تفيض الساعة . وكان هدير ناعم ينبعث من طائرة صغيرة كانت تبهر في الاعالي . وفي تقفح الهواء هذا وخصوية السماء تلك ، كان يبدو ان مهمة الانسان الوحيدة تكمن في ان يعيش ، وان يكون سعيداً . كان كل شيء يصمت في كيان مرسو . وهزته عطسة ثالثة فاحس بما يشبه حمى . واذاك هرب من دون ان ينظر حوله يلفه صرير حقييته ووقع خطاه . وحين وصل الى منزله ، وضع حقييته في زاوية ، فتمدد ونام حتى منتصف الاصيل .

الفصل الثاني

كان الصيف يلاً المرفأ بالصيحات وبالشمس . وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف . وكان النهار يتفتح عند منتصفه ليسحق الارصفة بكل ثقل حرارته . وامام عنابر غرفة التجارة في مدينة الجزائر ، كانت « سفن » ذات هياكل سوداء ومداخن حمراء تشعن اكياس قمح . وكان عطرها الغباري الخفيف يختلط بروائح القطران الكثيفة التي كانت شمس حارة تفتتحها . وامام كوخ صغير تنبعث منه رائحة الدهان وشراب الانيسون ، كان رجال يشربون وكان يهلواتات عرب يرتدون سراويل قصيرة حمراء يديرون ويقلبون اجسادهم على البلاط الملتهب امام البحر ، حيث تطفز الاشعة ، ومن غير ان ينظروا اليهم . وكان عمال الارصفة الذين يحملون الأكياس يدلفون على اللوحين المطاطين اللذين كانا يصعدان من الرصيف الى مرفأ السفن الشاحنة . واذ يصلون الى اعلى ، مقطوعين فجأة في السماء وعلى الجون ، بين الروافع والصواري ، كانوا يتوقفون لحظة مبهورين تجاه السماء ، تلتمع عيونهم في الوجه المغطى بطينية بيضاء من العرق والغبار ، قبل ان يندفعوا كالعميان في قعر السفينة ، ذات روائح الدم الساخن . وفي الهواء الملتهب ، زارت صفارة زئيراً متصلاً .

وفجأة توقف الرجال على اللوح متبلبلين . ذلك ان احدهم كان قد سقط بين الرافدات التي كانت من التقارب بحيث تكفي لامساكه . ولكن ذراعه التوت خلفه ، فانسحقت تحت عبء الكيس الهائل ، فكان يصرخ من الألم . في هذه اللحظة ، خرج باتريس مرسو من مكتبه . وعلى عتبة الباب ، قطع عليه الصيف تنفّسه ، فتنشق بملء فمه المفتوح بخار القطران الذي كان

يجرح حلقه . وتوقف امام العمال . كانوا قد استخرجوا الجريح ، فاذا هو منقلب على الالواح المغبرة ، وقد ابيضت شفتاه من الالم وتدلّت ذراعه المكسورة فوق مرفقه . وكانت شظية عظم قد اخترقت اللحم في جرح كريبه كان الدم يسيل منه . وكانت قطرات الدم السائلة على طول الذراع تتساقط ، واحدة إثر الأخرى ، على الاحجار الملتهبة وهي تحدث صريراً خفيفاً يرتفع منه بخار . كان مرسو يتأمل ، جامداً ، هذا الدم عندما امسك احدهم بذراعه . كان هو « ايمانويل » صبي السباق . وكان يدله على شاحنة كانت تتقدم نحوهم وسط جلجلة السلاسل والانفجارات . « هل نلحق بها ؟ »

وركض باتريس . لكن الشاحنة تجاوزتها . وفي الحال ، اندفعا اثرها ، غارقين في خضم الضجيج والغبار ، لاهثين وأعميين ، ولكن على قدر من الصحو يكفيها ليعسا انها محمولان باندفاع الجري الجامح في ايقاع الروافع والآلات المجنون ، مصحوبين برقص الصواري عند الأفق وترنح هياكل السفن المبقعة التي كانت يحاذيانها . وتعلق مرسو اولاً ، وهو واثق من قوته وخفته ، وقفز على الطائر . وساعد ايمانويل لكي يجلس متدلي الساقين . ووسط الغبار الابيض والطباشيري ، والجو الخائث المضيء الذي كان يهبط من السماء ، والشمس والديكور الخيالي الرحب للرفأ المتلي بالصواري والمراقع السوداء ، انطلقت الشاحنة مبهمة بكل سرعتها وهي تقفز بمرسو وايمانويل على بلاط المرفأ اللامتساوي ، فكانا يضحكان حتى انقطاع النفس ، في دوار الدم كله .

حين وصلت الشاحنة الى بلكور ، نزل مرسو مع ايمانويل الذي كان يغني . كان يغني بصوت عال وناشر .

وكان يقول لمرسو :

— انك تفهم . هو شيء ما يصعد في الصدر عندما اكون مسروراً ، عندما استحم .

كان ذلك صحيحاً . فان ايمانويل كان يغني وهو يسبح ، وكان صوته الذي
بح من الحصر فاختنق ازاء البحر ، يوقع حركات ذراعيه القصيرتين العضلتين .
وسلكا طريق ليون . كان مرسو يمشي بخطى واسعة ، فارع الطول ، مؤرجحاً
كتفيه المريضتين العضلتين . وفي طريقته بوضع قدمه على الرصيف الذي
سيجتازه ، وانزلاق جنبيه لتفادي الحشد الذي كان ، في بعض اللحظات يحيط
به ، كان المرء يحس انه امام جسد فتي وقوي بشكل غريب ، قادر على ان
يحمل صاحبه الى اقصى درجات الفرح الجسدي . واذا ما استراح ، فقد كان
يريح جسده على جنب واحد ، مع تكلف للمرونة طفيف ، على غرار رجل كان
قد تعلم من الرياضة رشاقة الجسد . كانت عيناه تلمعان تحت قوسي حاجبيه
البارزين قليلاً . وبينما كان يتحدث مع ايمانويل ، كان يشد على ياقته بجرمة آلية ،
وبرعشة متشنجة لشفتيه الملتويتين المرتجفتين ، لكي تكشف عنقه . ودلفا الى
مطعمهما وجلسا ثم اكلا بصمت . كان الجو رطباً في الظل . وكان في المطعم
ذباب واصطفاق صحون واحاديث . وقد تقدم نحوهما المعلم «سيليست» : كان طويلاً
ومشورياً ، وكان يحك بطنه فوق مريوله الذي كان يسقطه فيما بعد . قال ايمانويل :

— كيف الحال ؟

فيقول سيليست :

— كالشيوخ .

ودار الحديث . وكان سيليست و ايمانويل يتبادلان عبارات من مثل : « اوه
ايها الزميل » وربّات على الكتف . وكان سيليست يقول :

— « الشيوخ » اترى ، انهم بلهاء . يقولون ان الرجل الحقيقي هو من كان في
الخمسين . ولكنهم يقولون ذلك لأنهم في حوالى الخمسين . كان لي صاحب تنحصر
سعادته بابه . كانا يخرجان معاً . وكانا يسرفان في الاتفاق . وكانا يذهبان الى
الكازينو . وكان صاحبي يقول : لماذا تريدني ان اذهب مع جميع هؤلاء

الشيوخ ؟ انهم يروون لي كل يوم انهم تناولوا مسهلاً، وانهم يعانون من كبدهم .
فالأفضل ان اذهب مع ابني . وحين يعلق يوماً بفتاة ما ، أنظاها رباتي لا أرى
شيئاً وأصعد في قطار . الى اللقاء وشكراً . انني سعيد، سعيد جداً . . كان
ايمانويل يضعك . قال سيليست :

— بالطبع ، صحيح انه لم يكن مرجعاً عظيماً ولكنني كنت احبه كثيراً ..
وتوجه الى مرسو قائلاً :

— ثم انني افضل هذا على صاحب اعرفه . عندما كان ينجح ، كان
يحادثني وهو يرفع رأسه ويقوم بحركات صغيرة . اما الآن ، فهو اقل زهواً ،
لقد اضاع كل شيء .

قال مرسو :

— يستحق ذلك .

— اوه ا يجب ان لا يكون المرء مسرفاً في الحياة . لقد سعد بايامه ، وكان على
حق .. لقد كان لديه تسعة آلاف فرنك . آه لو كنت مكانه !

قال ايمانويل :

— ما كان عساك تفعل ؟

— كنت اشترت بيتاً ريفياً . ووضعت قليلاً من الدبق على السرة وعلماً .
وهكذا سأنتظر لأرى من اين تأتي الريح .

كان مرسو يأكل يهدوء ، الى ان بدأ ايمانويل يقصّ على المعلم معركته الشهيرة
في المارن .

— لقد جعلونا ، نحن الزواوين ، قنّاسة .

قال مرسو يوداعة :

— إنك تضجرتنا .

— لقد قال القائد فيها : « هجوما » او كنا بعد ذلك نهبط . كان ذلك شبيهاً بوهدي اشجار . وكان قد قال لنا بان نطلق ، ولكنه لم يكن امامنا احد . وعندها مشينا ، الى الامام هكذا . ثم فجأة ، بدأت الرشاشات تطلق نيرانها . وتساقطنا بعضنا فوق بعض . كان هناك عدد كبير من الجرحى والاموات ، الى حد ان الدم المنساب في اعماق الوادي كان يكفي لمعبوره في قارب . وكان هناك من يصرخ : « ماما ! كم كان ذلك فظيماً » .

نهض مرسو ، وعقد عقدة بمنشفته . وذهب المعلم يسجل فطوره بالطبشورة خلف باب المطبخ . كان هذا هو سجل حساباته . وعندما كان يحدث اي احتجاج ، كان يخرج الباب من مفاصله ويأتي بالحسابات على ظهره . وفي احدى الزوايا ، كان « روني » ، ابن المعلم ، يأكل بيضة برشت . قال ايمانويل :
— يا للسكين ! انه مصدور !

وكان ذلك صحيحاً . فان روني غالباً ما كان صامتاً ورصيناً . لم يكن شديد النعافة . ولكن نظره كان براقاً في تلك اللحظة ، كان احد الزبائن يشرح له ان السل « يُشفي مع الوقت والاحتياطات » . كان يوافق ويحجب برزاقه بين لقمتين . وجاء مرسو يرتفق المشرب على مقربة منه ليشرب قهوة . كان الآخر يتابع : « .. الم تعرف « جان بيريز » صاحب شركة الغاز ؟ لقد مات . لم يكن يشكو سوى رئة مريضة . ولكنه اراد ان يغادر المستشفى الى بيته . وهناك كانت زوجته . وزوجته كانت حضاناً ، اما هو ، فان المرض هو الذي كان قد احاله هكذا . انت تفهم . كان دائماً يعتليها . اما هي فلم تكن تريد . ولكنه كان فظيماً . وهكذا فان مرتين او ثلاثاً كل يوم كانت كافية

لأن تقتل رجلاً مريضاً .

وتوقف رونيه عن الطعام ، وكانت قطعة من الخبز ما تزال بين أسنانه .
كان يحدق في الرجل . وقال أخيراً :

- أجل ان الالم يأتي بسرعة . ولكن ذهابه يحتاج الى وقت .
وكتب مرسو اسمه باصبعه على المصفاة المغطاة بالبخار . ورف بعينه . بين هذا
المصدور الهادي وبين ايباويل المتخيم بالاغاني ، كانت حياته تتأرجح كل يوم في
روائح القهوة والقطران ، منفصلة عن ذاته وعن اهتمامه ، غريبة عن قلبه وعن حقيقته .
فالأشياء ذاتها ، التي كان يمكن لها في مناسبات أخرى ، ان تثير حماسه ، كان
يصمت عنها ما دام يعيشها ، حتى اللحظة التي يجد فيها نفسه من جديد في غرفته .
فيضع كل قوته وحذره ليطفىء شعلة الحياة التي تتأجج فيه .

كان المعلم يقول :

- اسمع يا مرسو . انت المتعلم تقول هذا .

قال باتريس :

- نعم . كفى . سوف تتذكر ذلك .

- اوه : انك تبدو نشيطاً ، هذا الصباح !

ابتسم مرسو ، واذا غادر المطعم ، اجتاز الطريق وصعد الى غرفته . كانت
تقع فوق ملحمة للخيال . كان وهو منحني على شرفته ، يشم رائحة الدم ويستطيع
ان يقرأ اللافتة . « الى اشراف مكسب للانسان » . تمدد على سريره ، واشعل
لغافة ثم نام .

كان مرسو يعيش في الغرفة التي كانت تسكنها امه . كانا قد سكنا طويلا في
هذه الشقة الصغيرة المؤلفة من ثلاث غرف . واذا اصبح وحيداً ، اجتر مرسو غرفتين
لبراميلي من اصدقائه كان يعيش مع اخته ، وكان قد احتفظ لنفسه بافضل

غرفة . كانت امه قد توفيت في الخامسة والستين من عمرها . كانت جميلة ، وبسبب ذلك كانت تعتقد ان بإمكانها ان تكون مغناجة وان تعيش برخاء وان تلعب . واذا ناهزت الاربعين ، ادركها مرض مريع ، فتجردت من اثوابها ومن زينتها ، واقتصرت على ارتداء قمصان المرضى ، مشوهة الوجهه باثناخات فظيعة ، مسمرة تقريباً بسبب ساقها المورمتين الحاملتين ، واخيراً نصف عمياء تتخبط يحنون في شقة بلا الوان كانت تتركها للأهمال . وكانت الضربة فجائية وحاسمة . لقد كانت مصابة بالسكري الذي كانت قد اهلته وزادته غنى بحياتها اللامبالية . ولقد كان هو مجبراً على ان يوقف دروسه وعلى ان يعمل . وحتى موت امه ، كان ما يزال يتابع القراءة والتفكير . وطوال عشر سنوات ، تحملت المريضة هذه الحياة . وكان هذا التعذيب قد استمر طويلاً الى حد جعل الذين يحيطون بها يعتادون على مرضها وينسون ان بإمكانها ان تنهار بسبب اصابتها الخطرة تلك . وماتت ذات يوم . وفي الحي ، كان مرسو موضع رثاء . كانوا يتوقعون الكثير منه عند الدفن . كانوا يتذكرون حب الابن الكبير لأمه . وكانوا يستحلفون الاقرباء البعيدين الا يبكوا لكي لا يحس باتريس بألمه يكبر . كانوا يبتهلون اليهم ان يحموه وان يتكرسوا له . اما هو ، فقد ارتدى افضل ما امكنه واخذ يتأمل الترتيبات ، وقبعته بيده . وقد رافق الموكب ، وحضر المراسم الدينية ورمى قبضة التراب وتقبل التعازي . مرة واحدة فقط اندهش وعبر عن استيائه من قلة السيارات المخصصة للضيوف . وكان هذا كل شيء . وفي اليوم التالي ، كان بالامكان رؤية هذا الاعلان على احدى نوافذ الشقة : « للايحار » . وهو الآن يعيش في غرفة امه . في الماضي ، كان للفقر بالقرب من امه نكهة عذوبة . فعندما كانا يلتقيان في المساء وياً كلان بصمت حول قنديل الكاز ، كانت سعادة خفية تكمن في هذه البساطة وهذا الحصن .

كان الحي من حولها صامتاً . وكان مرسو ينظر الى قم امه التعب ويتنسم . وكانت تبتنسم هي ايضاً ، فكان يعود الى الاكل . وكان القنديل يدخن قليلاً فصلة له امه بالحركة المنهكة ذاتها ، الذراع اليمنى وحدها ممدودة مرتدة الجسم الى الخلف . وكانت تقول :

— الست جائعاً بعد ؟ فيجيبها : « لا »

كان يدخن او يقرأ . في الحالة الاولى كانت امه تقول :

— بعد ا

وفي الحالة الثانية :

— اقترب من القنديل ، انك ستتلف نظرك .

والآن ، على النقيض ، فان الفقر في الوحدة كانت بؤساً فظيماً . وحين كان مرسو يفكر بمحزن في الفقيدة ، كانت شفقتة في الواقع ترتد اليه . كان باستطاعته ، ان يسكن بطريقة اكثر رفاية . ولكنه كان متعلقاً بهذه الشقة وبرائحة الفقر فيها . هنا ، كان على الاقل ، يلتقي بما قد كانه . وفي حياة كان يسمى فيها الى ان ينمحي ، كانت هذه المجاهدة القذرة الصابرة تتبجح له ان يعود الى ذاته في ساعات الحزن والاسف . كان قد ترك على الباب قصاصة من ورق مقوى رمادي مهدب الطرف . كانت امه قد كتبت عليه اسمها بالقلم الأزرق ، وكان قد احتفظ بالسريـر النحاسي القديم ، المنطى بالحريـر وصورة جده بلعينه الصغيرة وعينيه الصافيتين الجامدتين . وكان على المدفأة تماثيل لرعاة وراعيات يحيطون بساعة قديمة معطلة وقنديل كاز لم يكن يشعله قط تقريباً . ولم يكن الديكور المريب لكراسي القش المحوفة قليلاً وللخزانة ذات المرأة المصفرة ولطاولة الزينة الفاقدة احدى الزوايا ، لم يكن لهذا كله وجود بالنسبة

له لأن العادة كانت قد محت كل شيء . كان يتجول في ظل شقة لا تكلفه اي جهد . اما في غرفة جديدة ، فقد كان عليه ان يعتاد على الجديد ، وان يقاوم فيها ايضاً . وكان يريد ان يقلّص المساحة التي يمنحها للعالم وان ينام حتى 'يستهلك كل شيء . وكانت هذه الغرفة تخدمه لتحقيق هذا الهدف ؛ فقد كانت تطل من جهة على الطريق ومن جهة اخرى على سطيحة مغطاة دائماً بالغسيل . وفيما وراءها كانت تطل على حدائق صغيرة للبرتقال مرصوفة بين جدر عالية . في بعض الاحيان ، في ليالي الصيف ، كان يترك الغرفة يغمرها الظلام فيفتح النافذة على السطيحة والحدائق المظلمة . من الليل واليه ، كان اريج البرتقال يتصاعد قوياً جداً ويلفه بغلالاته الشفافة . في كل ليلة من ليالي الصيف ، كانت غرفته وكان هو نفسه يفرقان في هذا العطر اللطيف والمكثف في آن واحد . وكما لو انه كان ميتاً لأيام طويلة ، كان يفتح نافذته لأول مرة على الحياة .

استيقظ وفمه مليء بالنعاس ومغطى بالعرق . كان الوقت متأخراً جداً . سرح شعره وهبط مسرعاً وقفز في ترام . في الساعة الثانية وخمس دقائق كان في مكتبه . كان يعمل في غرفة كبيرة غطيت جدرانها الأربعة بأربعمئة واربع عشر مشكاة كانت الاضبارات مكدسة فيها . ولم تكن الغرفة قذرة ولا كريهة ، ولكنها كانت توحى في كل ساعة من ساعات النهار بمرقعة من شأنها ان 'تبلي الساعات الميتة . كان مرسومو يحقق في وثائق شحن البضائع ، ويتبرجم قوائم مؤونات المراكب الانكليزية . ومن الساعة الثالثة حتى الرابعة كان يستقبل الزبائن الراغبين بشحن الطرود . كان قد طلب هذا العمل الذي لم يكن في الواقع يروق له . ولكنه في اول الأمر كان قد وجد فيه باباً للخروج الى الحياة . لقد كان يحذ فيه وجوهاً حية ومرتابين ومراً ، ونسمة يحس فيها اخيراً بقلبه يخفق . وهكذا كان يفلت من وجوه ضاربات الآلة الكاتبة الثلاث

ومن مدير المكتب السيد لانغلوا . احدى الضاربات كانت على قدر لا بأس به من الجمال . وكانت متزوجة منذ فترة وجيزة . اما الأخرى ، فكانت تعيش مع امها ، والثالثة كانت سيدة مسنة قوية ومحترمة كان مرسو يحب حديثها المزهر والتحفظ الذي كانت تبديه حول موضوع : « مصائبه » على حد تعبير لانغلوا . وكان لهذا الأخير مواقف حرجية ، كانت السيدة هريون تنتصر فيها عليه دائماً . كانت تحتقر لانغلوا بسبب العرق الذي كان يلتصق بسرواله وبردفه وبسبب الذعر الذي كان يعتريه امام المدير واحياناً على التلفون وهو يسمع صوت حمام او شخصية مرموقة . وكان المسكين يحاول عبثاً ان يهدي المرأة المسنة او ان يحظى على رضاها . وهذا المساء كان يترنح وسط المكتب . قال :

— « اليس صحيحاً ، يا سيدة هريون انك تجديني خفيف الروح ؟ »

كان مرسو يترجم كلمة « نبات » ويتأمل فوق رأسه المصباح وكمة المصباح المصنوع من الكرتون الاخضر المثني . وكانت تجاهه روزنامة ذات الوان صارخة تحمل صورة « صفح تيرنوفاس Terreneuvas » . وكان مصفوقاً على طاولة مبيلة ونشافة ودواة ومسطرة . وكانت نوافذه تطل على كوماث كبيرة من الاخشاب مجلوبة من النزويج بواسطة سفن شاحنة صفراء وببيضاء . كان يرهف السمع . خلف الحائط ، كانت الحياة تتنفس تنفساً كبيراً صامتاً وعميقاً على البحر وعلى المرفأ . وحرره جرس الساعة السادسة ، البعيد جداً منه والقريب جداً في آن واحد . كان ذلك يوم سبت .

حين عاد الى منزله ، استلقى ونام حتى ساعة العشاء . قلى لنفسه بيضاً واكله رأساً من الصحن (من غير خبز لأنه كان قد نسي ان يشتري خبزاً) ثم استلقى ونام في الحال حتى صباح اليوم التالي . واستيقظ قبيل الغداء . ورتب هندامه ، هبط لياكل ؛ وحين صعد ، حل كلمتين متقاطعتين وقص بدقة اعلاناً عن املاح كروشن ألصقه في دفتر ملوء بصور الأجداد المهرجين وهم ينزلون

درجات السلام . واذا اتم ذلك ، غسل يديه ووقف على الشرفة . كان العصر رائئماً . على ان البلاط كان دهنياً . وكان الناس قليلين ومسرعين ايضاً . اما هو فقد كان يتابع بعينه كل انسان بدقة ثم يتركه بعد ان يبعد عن نظره ليعود لمارّ جديد . كانوا في بادئ الامر عائلات تنتزه ، منها عائلة من صبيين صغيرين في لباس البحارة ، البنطال تحت الركبتين ، مرتبكين في ثيابها الحشنة ، وفصاة صغيرة ذات شريطة كبيرة وردية وحذاءين اسودين مبرنقين . وخلفهم كانت ام مرتدية فستاناً من الحرير الكستنائي اثبه بحيوان هائل تلفة افعى ، واب اكثر تميزاً ، ، عصاه في يده . بعد قليل مرّ شباب الحلي ، شعورهم ملئمة وربطات عنقهم حمراء ، ستراهم مخصورة جداً ، في صدرها منديل مطرز واحذية ذات رؤوس مربعة . كانوا يذهبون الى دور السينما ، وسط المدينة ، وكانوا يسرعون نحو الترام وهم يضحكون ضحكات عالية . بعدهم ، اقفرت الطريق شيئاً فشيئاً . كانت الافلام قد بدأت في كل مكان . وكان الحلي قد اخلي الآن للحانوتين والقطط ، وكانت السماء ، بالرغم من صفائها ، صافية ، بلا اشراق فوق اشجار التين التي كانت تحيط بالشارع . وتجاه مرسو ، اخرج بائع التبغ كرسيّاً امام بابه فاقتعدها وهو يستند بذراعيه على المسند . وكانت الحافلات المزدحمة منذ لحظات قد فرغت تقريباً . وفي القهوة « شي بيارو » كان الصبي يكتسب النشار في القاعة الفارغة . وادار مرسو كرسيه ووضع كبايع التبغ . ودخن لفافتين الواحدة تلو الاخرى . ودخل الغرفة من جديد فاقتطع قطعة من الشوكولا وعاد ليأكلها عند النافذة . وبعد قليل اظلمت السماء ثم انقشعت على الاثر . ولكن مرور الغيوم كان قد خلق على الطريق ما يشبه وعداً بالمطر جعلها اكثر اظلاماً . عند الخامسة ، وصلت الحافلات وسط الضجيج حاملة من ملاعب الضاحية ، عناقيد من المتفرجين متعلقين على المدرجات والحواجز . اما الحافلات التالية ، فقد اعادت اللاعبين الذين كانوا يُعرفون من حقائبهم الصغيرة . كانوا يهدرون ويغنون ملء الرئتين ان ناديهم لن يفنى ابداً .

كثير منهم ارسل اشارات الى مرسو . وصاح احدهم « لقد هزمنام » . فاكتفى مرسو بالقول : نعم ، وهو يهز رأسه . وتكاثرت العربات بعد ذلك . بعضها كانت قد غطت بالأزهار جوارحها ورادياتها . ثم مال النهار بعض الشيء فوق السقوف ، فأصبحت السماء محمرة . ومع المساء الوليد ، انتعشت الشوارع من جديد . وكان المتنزهون يعودون . كان الأولاد المتعبون يكونون أو يستسلمون للجر . في هذه اللحظة أفرغت قاعات سينما الحي في الشارع موجة من المشاهدين . وكان مرسو يجد فيما يقوم به الشبان من حركات مصممة ومتباهية التفسير اللاواعي لفيلم المغامرات الذي كانوا قد شاهدوه . اما الذين كانوا يعودون من دور المدينة ، فقد وصلوا بعد ذلك بقليل ، كانوا أشد رصانة ، وبين الضحكات والتهريجات المقهقة كان يبرز من جديد في عيونهم وفي هبتهم نوع من الحنين لهذه الحياة ذات النمط المتألق التي كانت السينما قد فتحت لهم . ظلوا في الشارع يروحون ويغدون ، وعلى الرصيف المواجه لمرسو تكون أخيراً تياران : كانت قتيات الحي المسترسلات الشعر يتماسكن بالاذرع فيشكلن احد التيارين ، والشباب من جهة أخرى كانوا يطلقون النكات التي كن يضحكن لها وهن يُدرن رؤوسهن . كان الشبان الرصينون يدخلون المقاهي أو يشكلون على الرصيف فرقاً كان الموج البشري الذي يجري يحاصرها كأنها جزر صغيرة . وها هو الشارع مضاء والمصابيح الكهربائية ، تسحب النجوم الأولى التي كانت تطلع في الليل . وتحت مرسو ، كانت الارصفة تمتد بكل حمولتها من الرجال والاضواء . وكانت المصابيح تلمع البلاط الدهني ، والحافلات ترسل لمسافات منتظمة انمكساتها على شعر لماع أو شفة رطبة وضحكة أو سوار من فضة . بعد قليل ، مع الحافلات التي غدت أقل عدداً ، ومع الليل المسود فوق الاشجار والمصابيح ، فرغ الحي شيئاً فشيئاً واجتاز القط الاول على مهل الشارع الخالي من جديد ، وفكر مرسو بالعشاء . لقد كان يشكو الماء خفيفاً

في عنقه لأنه ظل وقتاً طويلاً مستنداً على ظهر كرسيه . وقد نزل ليشتري خبزاً وفطائر ثم أعدت طعامه وأكل . وعاد الى النافذة . كان اناس يخرجون . وكان الجو قد ترطب . وارتعش فاعلق زجاجه وعاد الى المرأة ، فوق المدفأة . ما خلا بعض الامسيات التي كان يستقبل فيها مارت او يخرج معها ومراسلته مع صديقاته في تونس ، فان حياته كلها كانت تنتظم في منظور باهت تعكسه المرأة لغرفة يتجاور فيها مصباح كاز قدر مع كسرات خبز .

قال مرسو : يوم احد آخر ينقضي .

الفصل الثالث

عندما كان مرسو يتنزه في الشوارع ، مساء ، وكان فخوراً بأن يرى الاضواء والظلال تتألق كذلك على وجه « مارت » ، كان كل شيء يبدو له سهلاً بشكل رائع ، قوته ذاتها وشجاعته . هذا الجمال الذي كانت تسكبه له كل يوم كأنها اكثر النشوات رهافة ، كان يكنّ لها العرفان بأن تعلمه امام الناس والى جانبه . ان تكون مارت قافية ، لكان ذلك عذبة العذاب نفسه وهو يراها سعيدة في رغبات الرجال ، كان سعيداً بأن يدخل هذا المساء معها الى السينما ، قبيل بدء الفيلم ، بينما كانت القاعة مملوءة تقريباً . كانت تتقدم أمامه ، تحوطها نظرات الاعجاب بوجهها المزدهر الباسم وجمالها العنيف . وكان ، وهو يمسك قبضته من اللبديّة في يده ، يشعر بارتياح خارق كأنما هو وعي داخلي لأناقته الخاصة . وقد اتخذ هيئة متعالية ورصينة وبالغ في تهذيبه ، وانحرف لكي يتيح للعامة ان تمر ، وخفض مقعد مارت قبل ان تجلس . فعل ذلك بسبب رغبة اقل بالتباهي مما كان يفعله بسبب هذا العرفان الذي كان يملأ قلبه ويفعه حباً لجميع الكائنات . وإذا كان قد اعطى العامة شيئاً مبالغاً به فلانه كذلك لم يكن يعرف كيف يعوض فرحه ولأنه كان يعبد بهذه الحركة اليومية معبوداً تلمع ابتسامته الباهرة كزيت في عينيه . وعند الاستراحة ، حين كان يحول في الصالة المغطاة بالمرايا ، فقد كان وجه سعادته هو ما تمكسه له الجدران ، مألوفة القاعة بصور رشيقة وراعية لقامته الفارعة القاتمة وابتسامة مارت المرتدية الواناً زاهية . صحيح انه كان يحب الوجه الذي كان يراه لنفسه على هذا النحو ، والفم المرتعش حول اللقافة والحمى المحسوسة في عينيه الفارقتين قليلاً ،

ولكن جمال انسان ما يعكس حقائق داخلية وعملية . وعلى وجهه يُقرأ ما يستطيع فعله ، ولو كان ذلك ثمناً للاجدوى الرائعة لوجه امرأة . كان مرسو يدرك ذلك جيداً، مما كان يدغدغ غروره، ويبتسم لشرطيته الخفية .

حين بلغ القاعة ، فكر انه وحده لم يكن يخرج ابداً في فترة الاستراحة ، مفضلاً التدخين والاستماع الى اسطوانات الموسيقى الخفيفة التي كانت تدار في تلك اللحظة . ولكن اللعبة ، كانت مستمرة هذا المساء ، وجميع الفرص لتمديداتها ولتجديدها كانت ملائمة . غير ان مارت ، عندما همت بالجلوس ردت سلام رجل جالساً خلفها بعدة صفوف . واذا سلم مرسو بدوره ، خيل اليه انه لاحظ ابتسامة خفيفة على زاوية شفتيه . وجلس من غير ان يتنبه الى اليد التي كانت مارت تضعها على كتفه لكي تحدثه والتي كان سيتقبلها بفرح لو جاءت قبل ذلك بدقيقة كدليل جديد لهذا السلطان الذي كانت تعترف له به .

— من هو ؟

قالها متوقفاً ان تأتبه « من » طبيعية جداً .

— اتعرفين « هذا الرجل » .

قالت مارت : آه . ثم سكنت .

— من هو ؟

— هل تحرص كثيراً على معرفته .

قال مرسو : لا .

والتفت قليلاً الى الورا . كان الرجل ينظر الى رقبة مارت من غير ان

يرف شيء في وجهه . كان جميلاً كفاية ، ذا شفتين جميلتين شديديتي الحمرة ، ولكن العينين كانتا بلا تعبير وبلا عمق . واحس مرسو بدفقات من الدم تصعد الى صدغيه . وامام نظره الذي اسود ، كانت الالوان اليراققة لهذا الديكور المثالي الذي كان يعيش فيه منذ ساعات قد غدت فجأة ملطخة بالسخام . اية حاجة كانت به ليسمعها تتكلم . كان متأكداً من ان هذا الرجل كان قد نام مع مارت ، وما كان في نفس مرسو كالرعب ، كان تصوّر ما كان يوسع هذا الرجل ان يقوله لنفسه . كان يعرف ذلك جيداً هو الذي كان قد فكر على هذا النحو : « تستطيع دائماً ان تفاخر » . وحين راودته الفكرة ان هذا الرجل ، في هذه الدقيقة نفسها ، كان يستعيد حركات معينة لمارت وطريقتها في وضع ذراعها على عينيها لحظة اللذة ، وحين فكر ان هذا الرجل ايضاً كان قد حاول ان يبعد هذه الذراع ليقرأ هياج الآلهة الكثيية الصاحب في عيني المرأة ، اذ ذاك احس مرسو ان كل شيء فيه ينهار . وبينما كان جرس السينما يعلن امتثناف الفيلم ، كانت عيناه المغمضتان تمثلتان بدموع الغضب . كان ينسى مارت التي لم يسبق لها ان كانت الا ذريعة لفرحه ، والتي اصبحت الآن الجسد النابض لغضبه . وظل مرسو مغلقاً عينيه فترة طويلة حتى اللحظة التي فتحها فيها على الشاشة . كانت سيارة تدهورت ، وفي صمت عميق للجوقة كلها ، ظلت احدى العجلات وحدها تدور على مهل ، جارفة في دائرتها العنيدة كل العار والحزني المنبعثين من قلب مرسو المستاء . وكانت حاجة لليقين في ذاته تدفعه الى نسيان كرامته . سألها :

— مارت ، هل كان عشيقك ؟

قالت :

— نعم . ولكن الفيلم يستهويني .

في هذا اليوم ، بدأ مرسو يتعلق بمارت ، كان قد تعرف عليها لبضعة شهور

خلت . وكان قد ذُهل بجها لها وأناقنها . ففي وجهها العريض قليلاً ، ولكن المتناسق ، كانت لها عينان مذهبتان بلغتا من اناقة الخضاب بحيث كانت تبدو اشبه بآلهة مرسومة الوجه بيد حاذقة . وكانت بلاهة طبيعية تلمع في عينيها فتزيد هيئتها اللامبالية الهادئة تعبيراً . وحتى الآن ، في كل مرة كان مرسو يعقد فيها مع امرأة ما اولى الحركات الملزمة ويعمي الشقاء الذي يفرض على الحب والشهرة ان يتحدا بالطريقة ذاتها ، كان يفكر بالقطيعة قبل ان يكون قد ضمّ هذا الكائن بين ذراعيه . الا ان مارت كانت قد ادركته في لحظة كان فيها مرسو يتحرر من كل شيء ومن ذاته . ذاك ان وهم الحرية والاستقلال لا يدركه الا من كان لا يزال يعيش بالأمل . اما بالنسبة لمرسو ، فلم يكن لشيء آنذاك اي حساب . فعندما استرخت مارت بين ذراعيه للمرة الاولى ورأى في الملامح التي جعلها التقارب مشوشة قليلاً ، رأى الشفتين الجامدتين حتى الآن كزهرتين مرسومتين تحفقان بالحياة وتمتدان نحوه ، اذ ذاك ، لم ير المستقبل من خلال هذه المرأة ، وإنما احس بقوة رغبته كلها تتركز فيها وتمتليء بهذا التجلي . وكانت الشفتان اللتان كانت تقدمهما له تبدوان له رسالة من عالم بلا اهواء ، مليء باللذة ، يصيب فيه قلبه الرضى . ولقد احس ذلك كأنه المعجزة . وكان قلبه يخفق بعاطفة اوشك ان يظنها حباً . وعندما احس باللحم الريان المرن تحت اسنانه ، فانما عضّ فيه نوعاً من الحرية الوحشية عضاً هائجاً بعد ان كان قد داعبسه طويلاً بشفتيه بالذات . وغدت عشيقته في ذلك اليوم نفسه . وبعد فترة ، كان ائتلافها في الحب تاماً ، ولكنه ، وقد عمقت معرفته لها ، فانه كان قد فقد شيئاً فشيئاً حدس هذه الغرابة التي كان قد قرأها فيها والتي كان ما يزال يحاول ، وهو مائل على فمها ، ان يبتلعها احياناً . وهكذا لم تكن مارت ، التي كانت قد اقلت تحفظ مرسو وبرودته ، لتدرك قط لماذا كان قد طلب منها ذات يوم ان تعطيه شفتيها وهما في حافلة غاصة بالناس . وكانت قد قدّمتها له وهي مدعورة . وكان قد قبلها على هواه بادئاً بمداعبتها بشفتيه ثم عاضاً إياها على

مهل . وكانت قد قالت له على الأثر : « ماذا دهالك ؟ » واقتر وجهه بالبسمة التي كانت تحبها : الابتسامة المقتضبة التي تجيب . فقال « احب ان أحسني قلقاً ، ليدخل مجدداً في صمته . انها لم تكن تفهم كذلك قاموس باتريس . فبعد فعل الحب ، في تلك اللحظة التي يجمع فيها القلب في الجسد المحرر المسترخي ، ممثلاً فقط بالشفف الحنون الذي نكنه لقلب لطيف ، كان مرسو يقول لها باسم : « مرحباً يا تجلٍ » .

كانت مارت ضاربة على الآلة الكاتبة . ولم تكن تحب مرسو . بيد انها كانت معلقة به بقدر ما كان يثير فضولها ويدغدغ غرورها . فمنذ اليوم الذي تحدث فيه ايمانويل ، وكان مرسو قد قدمه لها فقال عنه :

— « ان مرسو ، لو تعلمين ، شخصية . انه يخبيء شيئاً في ذاته . ولكنه يغلفه ، من اجل ذلك يُخدع به الانسان » .

منذ ذلك اليوم اخذت تنظر اليه بفضول . فلما كان يجعلها سميدة في الحب ، فلم تكن لتطلب منه مزيداً ، مستريحة على افضل وجه لهذا العشيق الصموت القليل الصخب الذي لم يكن يطالبها قط بشيء . وكانت يأخذها حين كانت تريد طوعاً ان تأتي . الا انها كانت فقط مرتبكة بعض الشيء امام هذا الرجل الذي لم تكن تلاحظ عيبه .

غير انها فهمت ذلك المساء ، بعد خروجها من السينما ، ان شيئاً ما يستطيع ان يؤثر فيه . وصمتت طوال الامسية ثم نامت عنده . فلم يلحسها الليل كله . غير انها ، ابتداء من هذه اللحظة ، أفادت من تفوقها . لقد سبق ان قالت له : انها قد كان لها عشاق . وعرفت كيف تجد الادلة الضرورية .

وفي اليوم التالي ، وعلى غير عادتها ، جاءت الى منزله اثر انتهاء عملها . فوجدته نائماً . فجلست عند اسفل السرير النحاسي من غير ان توقظه . كانت يرتدي قميصاً كانت اكمامه المرفوعة تكشف بياض الساعد العاقل الاسمر . كانت

يتنفس بانتظام بصدرة وبطنه معاً . وكانت ثنيتان بين حاجبيه تضحيان عليه
تعبير قوة وإصرار كانت تعرفه جيداً فيه . وكانت خصلات شعره تهدل على
جبينه البالغ السمرة الذي كان وريد ينبض فيه . وكان يبدو ، وهو مستلق على
كتفيه العريضتين ، وذراعه ممتدان على طول الجسد واحدى ساقيه نصف
منشئية ، أشبه بإله متوحد عنيد ملقى ، وهو نائم ، في عالم غريب . وامام
شفتيه الريانتين المكتنزتين بالنوم ، امشته . فقد فتح في تلك اللحظة عينيه نصف
فتحة واغلقها وقال من غير غضب :

- لا احب ان ينظر الي احد وانا نائم .
وقفزت على عنقه وقبلته . فظل جامداً .
قالت :

- اوه . يا حبيبي نزوة اخرى من نزواتك .
- لا تناديني حبيبي ، ارجوك . لقد سبق ان قلت لك ذلك .
وتمددت ملتصقة به ونظرت اليه جانبياً .
- انني اتساءل من تشبه في وضعك هذا .

رفع سرواله وادار لها ظهره . كثيراً ما كانت مارت ، في السينا ، ومع بعض
الغرباء في المسرح ، معتادة على حركات مرسو وتشنجاته . والحق انه كان يجد في
ذلك التأثير الذي كان يمارسه عليها ، غير ان هذه العادة التي كانت تدغدغ غروره
غالباً كانت تضايقه اليوم . والتصقت بظهره ، وتلقت على بطنها وعلى صدرها حرارة
نومه كلها . وكان المساء يهبط بسرعة كبيرة والفرقة تفرق في الظلمة . وفي داخل
البيت كان يتصاعد بكاء اطفال قد ضربوا ونواء واصطفاق باب . وكانت مصابيح
الشارع تضيء الشرفة . وكانت حافلات نادرة تمر . وبعد ذلك كانت رائحة
الحي المكونة من الانيسون واللحم المشوي تتصاعد الى الفرقة هبات ثقيلة .

واحست مارت بالنعاس يستولي عليها .

قالت :

— يبدو عليك الغضب منذ البارحة . من اجل ذلك اتيت . الا تقول شيئاً ؟

وهزته . فظل مرسو جامداً . كان يراقب في الظلام ، الذي غدا كثيفاً ، الحنية اللامعة لهذا موضوع تحت طاولة الزينة .

قالت مارت :

— اسمع . ان رجل البارحة قد بالغت في أمره . لم يكن عشيقى .

قال مرسو :

— لم يكن في الحقيقة ، لم يكن تماماً .

ولم يكن مرسو يقول شيئاً . كان يرى بوضوح الحركات والابتسامات . وقد كثر على أسنانه . ثم نهض وفتح النافذة ثم عاد وجلس على السرير . وتكويرت بلصقه وأمرت يدها بين زرتين من أزوار قميصه ، وداعبت صدره .

واخيراً سألتها :

— كم عشيقاً عرفت ؟

— إنك تضجرتني .

ثم سكت مرسو .

قالت : — حوالى العشرة .

كان النعاس عند مرسو يستدعي التدخين .

سألتها وهو يخرج علبة : —

— هل اعرفهم ؟

لم يكن يرى الا بياضاً مكان وجه مارت . وكان يفكر :

« كما في الحب » .

— اجل ، تعرف بعضهم في الحي .

كانت تحك رأسها بكتفه ، وتتخذ صوت فتاة صغيرة كان دائماً يوهي عزيمته

قال لها :

— اسمعي يا صغيرتي . (وأشعل لفافته) إفهميني . ستعدينني بأن تقولي لي
اسماءهم . اما بالنسبة للآخرين ، اولئك الذين لا اعرفهم ، فستعدينني ايضاً ، ان
نحن لقيناهم ، بأن تدلّيني عليهم .

فارتدت مارت الى الوراء : — آه ! لا .

زمرت سيارة بعنف تحت نوافذ الغرفة . ثم زمرت طويلاً مرة اخرى ثم
مرتين . ورنّ جرس الترام في اعماق الليل . وعلى رخام طاولة الزينة كان المنبه
يرسل تكتكات بازدة . قال مرسو بجهد :

— انني اطلب منك ذلك لأنني اعرف نفسي ، فاذا لم اعرف ، فسيكرر
الأمر . كلما لاقيت شخصاً سأسألك نفسي وسأخجل . هذا هو الأمر . سيشتط
بي الخيال . لست ادري ان كنت تفهميني .

كانت تفهم تماماً . فذكرت الاسماء . واحد فقط كان مجهولاً بالنسبة لمرسو .
اما الأخير ، فقد كان شاباً كان يعرفه . وبه كان يفكر ، لأنه كان يعرفه جيلاً
ومحتفى به من النساء . وما كان يثيره في فعل الحب ، للمرة الاولى على الاقل ،
كانت هذه الصميمية الفظيعة التي كانت المرأة تتقبلها ، وان تتلقى في بطنها بطن
مجهول . وكان يتعرف ، في هذا النوع من العفوية والبساطة والدوار ، على سلطان
الحب المثير القدر . وهذه هي الصميمية التي كان يتصورها في بادئ الأمر بين
مارت وعشيقها . في هذه اللحظة ، جلست على حافة السرير مسندة قدميها

اليسرى على فخذهما اليمنى . وخلعت أحد حذائيهما ثم الآخر وتركتها يسقطان
أحدهما ممدداً على جنبه والآخر واقفاً على كعبه العالي . وأحسّ مرسو بحلقه
ينقبض . وكان شيء ما في معدته يتأكله .

قال وهو يتسم :

— اهكذا كنت تفعلين مع روني ؟

ورفعت مارت عينيه وقالت :

— ما الذي تتصوره ! انه لم يكن عشيقني الا مرة واحدة .

قال مرسو :

— آه !

— ثم انني لم اخلع حذائي .

ونفض مرسو . كان يراها مقلوبة ، مرتدية ثيابها ، على سرير شبيه بهذا
السريـر ، مستسلمة بكاملها وبلا تحفظات . وصرخ : « أغلقي فمك ! » ومشى
نحو النافذة .

قالت مارت :

— آه يا عزيزي !

وكانت ما تزال جالسة على السرير وقد ماها عاريتان بجواربها وعلى الارض .
وكان مرسو مهدأ ، وهو ينظر الى لعب المصابيح على السكك الحديدية . لم
يسبق له قط ان كان على مثل هذا القرب من مارت . واذ فهم انه في الوقت
نفسه كان ينفتح عليها اكثر قليلا ، كان الزهو يحرق عينيه . وعاد اليها . وبين
السبابة المطوية والابهام أمسك جلد العنق الدافئ تحت الاذن ، وابتم .
— وهذا «زغرو» ، من هو؟ انه الوحيد الذي لا أعرفه .

قالت مارت وهي تضحك :

— انني ما ازال أراه ، هو .

وشدّ مرسو اصابعه على الجلد .

— انه عشيقي الأول . انت تقدر . كنت صبيبة صغيرة ، وكان يكبرني قليلاً . اما الآن ، فساقاء مقطوعتان . وهو يعيش وحيداً . من اجل ذلك ، اذهب احياناً لأراه . انه ذو شخصية . ومثقف . فهو يقرأ دائماً . وفي تلك الايام كان تلميذاً . انه مرح جداً ، انه شخصية بالاختصار . زد على ذلك انه يقول لي مثلك . يقول لي : تعالي الى هنا ، يا تجلّ .

فكّر مرسو . وترك مارت التي انقلبت على السرير وهي تغمض عينيها . بعد فترة ، جلس الى جانبها ويبحث ، وهو ينحني على شفتيها المنفرجتين ، عن دلائل الوهية الحيوانية ونسيان الم كان يعتقد انه معيب . ولكنه ترك فمها من غير ان يذهب أبعد من ذلك .

وحين رافق مارت ، حدثته عن زغرو . قالت :

— لقد حدثته عنك . قلت له ان حبيبي كان جميلاً جداً وقوياً جداً . واذ ذاك قال لي انه يود لو يتعرف عليك . وقال لي : « ان ارى جسماً جميلاً ، فهذا يساعدني على ان اتنفس جيداً . »

قال مرسو :

— انه شخص معقّد آخر .

كانت مارت تريد ان تسرّه ، واعتقدت ان الوقت قد حان لتذكر حادثة الغيرة الصغيرة التي كانت تفكر بها ، والتي كانت تعتقد انه كان هو سببها على نحو ما .

— اوه ! انه اقل تعقيداً من صديقاتك !

قال مرسو وهو صادق التعجب :

— اية صديقات ؟

— انك تعرفهن . الصغيرتان المحقاوان ، كما تعرف .

الصغيرتان المحقاوان ، كانتا روز وكليز ؛ وهما طالبتان من تونس كان مرسو قد تعرف عليهما . ومعها فقط كان يتبادل المراسلة الوحيدة في حياته . وقد ابتسم وأخذ برقبة مارت ومشيا طويلا . كانت مارت تسكن امام ساحة العمال اليدويين . وكان الطريق طويلا ، وكان يلعب بكل نوافذه في القسم الأعلى بينما كان الاسفل ، وكله حوانيت مقفلة اسود حزينا .

— قل يا حبيبي . الا تحبها ؟ هاتين المحقاوين الصغيرتين ؟

قال مرسو :

— اوه . لا .

كانا يسيران ، ويد مرسو على رقبة مارت المغطاة بحرارة الشعر .

قالت مارت بلا تمهيد :

— انك تحبني .

واتنمش مرسو فجأة وضحك ضحكا شديدا .

— هوذا سؤال خطير جدا .

— أجب .

— ولكن في سننا ، لا يجب المرء . ان احدنا يروق للآخر ، وهذا كل شيء .

فما بعد ، عندما نكون شيوخا وعاجزين ، نستطيع ان نحب . اما في سننا ،

فنتعقد اننا نحب . هذا كل شيء .

ويدت حزينة ، ولكنها قبلته .

قالت :

— الى اللقاء يا حبيبي .

وعاد مرسو أدراجه في الطرقات السوداء . كان يسير بسرعة ، وفيما كان يعي لعبة عضلات فخذه على طول قماش السروال المالس ، أخذ يفكر بزغرو وبساقيه المقطوعتين؛ كانت به رغبة للتعرف عليه . وقرّر ان يطلب من مارت ان تقدمه اليه .

أحس مرسو ، في المرة الاولى التي رأى فيها زغرو ، بالفيظ . بيد ان زغرو كان قد حاول ان يخفف من وطأة الازعاج الكامن في تصوّر لقاء عشيقته امرأة واحدة ، وبحضورها . لأجل ذلك كان قد حاول ان يجعل مرسو شريكاً وهو يعامل مارت « كفتاة طيبة » ويضحك بشدة . وظل مرسو مصدوماً . ولقد باح بذلك بعنف لمارت ما ان وجدا بمفردهما .

— انني لا أحب نصف الحصص . ان هذا يضايقني ويمعني من التفكير .
وانني أقل حباً ايضاً لنصف الحصص التي تُفادح .

أجابت مارت ، ولم تكن قد فهمت :

— اوه ! انت ! لو كنا نستمتع اليك .

على ان ضحكة زغرو الفتية التي كانت قد أغاظته في بادئ الامر، استرعت فيها بعد انتباهه واهتمامه كما ان الغيرة التي أسيء تقنيها والتي كانت تقود مرسو في حكمه كانت قد اختفت عندما رأى زغرو . ونصح مارت التي كانت تذكر ، في براءة كلية ، بالوقت الذي كانت تعرّفت فيه على زغرو قائلاً :

— لا تضيعي وقتك . لا يمكن ان اكون غيوراً من شخص لا يملك ساقيه بعد . يكفي ان افكر بكما انما الاثنين حتى أراه كدودة ضخمة عليك . انت تفهمين اذن . ان ذلك يلويني من الضحك . لا تتبعني نفسك ، يا ملاكي .

وفيا بعد ، عاد وحده الى منزل زغرو . وكان هذا الاخير يتكلم كثيراً وبسرعة ويضحك ثم يسكت ، وكان مرسو يحس براحة تامة في الغرفة الكبيرة التي كان زغرو يقيم فيها بين كتبه ونحاسياته المراكشية ، والنار وانعكاساتها على وجه بوذا الرصين الخيري على مكتب عمله . كان يستمع الى زغرو ، وما كان يسترعي انتباهه لدى العاجز ، هو انه كان يفكر قبل ان يتكلم . واما ما تبقى من الشهوة المكبوتة والحياة المضطربة التي كانت تحيي هذا الجذع المضحك ، فقد كان كافياً لكي يمسك بمرسو ويولد فيه ، لو انه امتسلم لمزيد من العفوية ، شيئاً كان يمكن ان يعتبره صداقة .

الفصل الرابع

بعد ظهر هذا الأحد ، كان رولان زغرو ، بعد ان كان قد تكلم ومزح كثيراً ، صامتاً قرب النار في مقعده الكبير الدائر ، منبثقاً من اغطيته البيضاء . وكان مرسو ، وهو يستند الى المكتبة ، ينظر الى السماء والى القرية من خلال ستائر النوافذ الحربية البيضاء . كان قد أتى تحت مطر خفيف ناعم ، وخوفاً من ان يصل أبكر مما ينبغي ، فقد ظل يتيه طوال ساعة في الريف . كان الجو كثيباً ، ومن غير ان يستمع الى الريح ، كان مرسو يرى مع ذلك الاشجار والأوراق وهي تتلوى بصمت في الوادي الصغير . ومرت ، من ناحية الطريق ، عربية حلاب وسط ضجيج كبير من الحديد والحشب . وفي الحال تقريباً اخذ المطر يتساقط بغزارة ويفرق النوافذ . ومع ترافق هذا الماء الشبيه بالزيت السميكة على الزجاج ووقع اجوف وبعيد لحواف الحصان الذي يبدو الآن اكثر وضوحاً من ضجيج العربية ، ووابل المطر المخلوق المستمر ، وهذا الرجل - القطرميز امام النار وصمت الغرفة ، كل ذلك كان يتخذ وجه الماضي الذي كانت كآبته الصامته تنفذ الى قلب مرسو كما نفذ الماء منذ قليل الى حذائيه الرطبين والبرد الى ركبتيه المحميتين على نحو رديء بقماش رقيق . منذ لحظات مضت ، كانت المياه المتبخرة التي تهطل ، لا ضباباً ولا مطراً ، قد غسلت وجهه كيد رقيقة ، وكشفت عينيه الغائرتين عميقاً . كان ينظر الآن الى السماء ، وفي اعماقها كانت غيوم سوداء تتزاحم بلا انقطاع سرعان ما تنمحي ومرعات ما تحمل محلها سحائب أخرى . وكانت ثنية بنطاله قد اختفت ومعها اختفت الحرارة والثقة التي

يصاحبها رجل طبيعي في تنزهه في عالم مصنوع من أجله . ومن أجل ذلك اقترب من النار ومن زغرو ، جالساً بمواجهته في ظل المدفأة العالية وبمواجهة السماء دائماً . ونظر اليه زغرو وحول عينيه ورمى في النار كرة من الورق كان يحملها في يده اليسرى . وفي هذه الحركة المضحكة كما هي دائماً ، تلقى مرسو الضيق الذي كان يسببه له مرأى هذا الجسد نصف الحي . وابتسم زغرو ولكنه لم يقل شيئاً . وفجأة احنى وجهه نحوه . كان اللهب يلعب على خده الأيسر وحده . ولكن شيئاً ما في صوته وفي نظره كان مشحوناً بالحرارة .

قال :

— يبدو عليك أنك متعب .

وبدافع من حياء أجاب مرسو بهذه الكلمات فقط :

— أجل ، انني « ضجر » .

وبعد فترة ، نهض وسار نحو النافذة ، وأضاف وهو ينظر الى الخارج :

— أرغب في ان اتزوج او انتحر او اشارك بمجيلة «أو لوستراسيون» .
وبالاختصار حركة يائسة .

وابتسم الآخر :

— أنك فقير يا مرسو . وهذا يفسر نصف قرفك . اما النصف الآخر فانك مدين به إلى اقرارك اللامعقول الذي تحمله للفقير .

كان مرسو ما يزال يوليه ظهره وينظر الى الاشجار في مهب الريح . وملس زغرو بيده الغطاء الذي كان يغطي ساقيه .

— انت تعلم ان الانسان يحكم على ذاته دائماً بالنسبة للتوازن الذي يقيمه بين حاجات جسده ومتطلبات فكره . اما انت ، فانك تحاكم نفسك بقذارة ، يا مرسو . أنك تعيش عيشة سيئة ، عيشة المتوحش .

وإدار رأسه نحو باريس .

— هل تحب ان تسوق سيارة ؟

— نعم .

— هل تحب النساء ؟

— عندما يكنّ جيلات .

— هذا ما كنت أعنيه .

وأستدار زغرو ناحية النار .

بعد لحظة بدأ يقول : « كل هذا ... » .

التفت مرسو وأخذ ينتظر نهاية الجملة ، وهو مستند على الزجاج الذي كان يلتوي قليلاً خلفه . ظلّ زغرو صامتاً . كانت ذبابة باكورية تطنّ على الزجاج . والتفت مرسو وحبسها تحت يده ثم أطلقها . وكان زغرو ينظر اليه ، وقال له متردداً :

— لا أحب ان أتكلم يحد . لأنه لن يكون هناك إلا شيء واحد يمكننا التحدث به : التعبير الذي يضيفه المرء على حياته . اما أنا ، فاني لا أرى كيف أستطيع ان أبرر لنفسي ساقبي المتورتين .

— « وأنا كذلك » . قال زغرو من غير ان يتلفت .

وأنفجرت فجأة ضحكة زغرو النضرة :

— شكراً . انك لا تترك لي أي وهم .

وغير لهجته : — ولكنك محق في ان تكون قاسياً . على ان هناك أمراً أودّ ان أقوله لك .

وصمت برصانة . وأقبل مرسو مجلس تجاهه .

وكرر زغرو :

— اسمع وانظر اليّ . انهم يساعدونني على قضاء حاجاتي ، وبعد ذلك يفسلونني وينشفونني . وأسوأ ما في الأمر انني أستأجر شخصاً ليقوم بهذا العمل . ومع ذلك ، فاني لن أقوم أبداً بحركة لأختصر حياة أو من بها كثيراً . انني قد أقبّل ما هو أسوأ أيضاً ، ان أكون أعمى وأخرس وكل ما تريده ، شريطة ان أحس فقط في أحشائي هذه الشعلة الداكنة والمحتدمة التي هي أنا وأنا الحيّ . ولن أفكر إلا بان أحد للحياة أنها أفلحت لي ان احترق بعد .

وأرتمى زغرو إلى الخلف لاهثاً بعض الشيء . كان يُرى الآن أقل من ذي قبل ، فقط انكساراً كابياً كانت أعطيته تخلفه على ذقنه . إذ ذاك قال :

— وانت يا مرسو ، ان واجبك الوحيد هو ان تعيش بحسبك . وان تسعد .
قال مرسو :

— لا تجعلني أضحك . تصوّرني بساعاتي الثماني في المكتب . آه ! لو كنت حراً ! .

وكان يحس بالانتعاش وهو يتكلم ، ويعاوده الأمل كما كان في السابق احياناً ، وقد ازداد اليوم قوة بدافع من الاحساس بالعمى . وكانت ثقة ما تأتيه من ان يوسعه اخيراً ان يكون موضع ثقة . وقد هدأ قليلاً وبدأ يسحق لفافة ، وأستأنف بمزيد من الرزاقنة :

— لسنوات خلت ، كان كل شيء امامي . وكانوا يحدّثونني عن حياتي وعن مستقبلي . كنت أقول نعم . بل كنت أفعل ما كان ينبغي عليّ ان أفعله من أجل ذلك . ولكن ذلك كله بدأ آنذاك يكون غريباً عليّ . ان أتشبّث بالاشخصية ، هذا ما كان يشغلني . وان لا اكون سعيداً « ضدياً » . انني أسوء الشرح . ولكنك تفهم يا زغرو .

قال الآخر :

— أجل .

— وما ازال الآن ، لو أتيح لي الوقت .. لن يكون امامي إلا أن أستسلم .
وكل ما قد يحصل لي ، علاوة على ذلك ، فانما هو كالمطر فوق حصاة ، انه يُنعشها
وهذا بذاته جميل جداً . وذات يوم سوف تلتهب بالشمس . لقد بدا لي دائماً ان
السعادة انما هي هذا بالضبط .

كان زغرو قد شبك يديه . وفي الصمت الذي تلا ، بدأ المطر يتضاعف .
وانتفضت الغيوم في ضباب لا يتميز . وأظلمت الغرفة بعض الشيء كما
لو كانت السماء تصب عليها حمولتها من العتمة والصمت . وقال العاجز باهتمام :

— ان للجسد دائماً المثال الذي يستحقه . ومثال الحصاة هذه ، ان كان
بامكاني ان أقول ذلك ، يحتاج ، لكي يدعمه ، جسد نصف — إله .
قال مرسو مندهشاً قليلاً :

— هذا صحيح ! ولكن لا تبالغ بشيء . لقد قُتبت بكثير من الرياضة ، وهذا
كل ما الأمر . وأنا تقادر على ان أمضي بعيداً في الشهوة .
وفكر زغرو .

قال :

— نعم . وهذا افضل لائي . ان تدرك حدود جسدك ، هذه هي البسيكولوجية
الصحيحة . ثم انه ليس لذلك أهمية . ليس لدينا الوقت لنكون « نحن أنفسنا » .
ليس لدينا الوقت الا لنكون سعداء . ولكن هل يضجرك ان تحدّد لي فكرتك
في اللاشخصية ؟

قال مرسو :

— لا .

ثم صمت .

شرب زغرو جرعة من شايه ، وترك فنجاناه المليء . كان يشرب قليلاً جداً ،

لأنه لا يريد ان يبول إلا مرة واحدة في اليوم . وبقوة الإرادة ، كان يتوصل دائماً تقريباً إلى ان يخفف ثقل الاذلال الذي كان يجعله اليه كل يوم . ليس هناك توفيرات صغيرة . انما هي ماثرة كغيرها . وهذا ما كان قد قاله لمرسو ذات يوم . وتساقطت لأول مرة بضع قطرات من الماء في المدفأة ، وأنت النار ، وكان المطر يتضاعف على الزجاج . وفي جهة ما أصطفق باب . وفي الطريق المقابل كانت السيارات تتتابع كجردان لماعة . وزمرت إحداها طويلاً . وعبر الوادي الصغير ، كان الرنين الأجوف الحزين يجعل حيز العالم الرطب أكثر راحة ، حتى ان ذكراه بالذات غدت بالنسبة لمرسو مرّة كبة من صمت هذه السماء وضيقها .

— انني استمبحك عذراً يا مرسو . فقد مضى عليّ وقت طويل من غير ان اتحدث عن بعض الأمور . ولذلك فانا لم أعد أعرف أو لا أعرف كما ينبغي . عندما أنظر إلى حياتي وإلى لونها الخفي ، أحس فيّ ما يشبه زلزالاً من الدموع ، شأني في ذلك شأن هذه السماء . انها مطر وشمس معاً . منتصف نهار ومنتصف ليل . آه ، يازغرو ! أفكر في هذه الشفاه التي قبلتها ، والولد الفقير الذي كنته ، وفي جنون الحياة والطموح الذي يعصف بي في بعض اللحظات . انني كلّ ذلك في آن واحد . أنا متأكد من ان هناك لحظات لن تعرفني فيها . لا أدري ، فانا متطرف في الشقاء مغال في السعادة .

— أتلعب على عدة مستويات في آن واحد ؟

قال مرسو بحدة :

— نعم . ولكن لا كهو . كلما فكرت في مسيرة الألم والفرح هذه في ذاتي ، أدرك جيداً وبجاس شديد ان اللعبة التي ألعبها ، هي ، من بين جميع الألعاب ، أكثرها رصانة وأشدّها إثارة .

كان زغرو يبتسم .

— هل لديك إذن شيء تقوم به ؟

قال مرسو بمنف :

— لديّ حياتي لأكسبها . غير ان عملي وهذه الساعات الثماني تحول بيني وبين ذلك .

وصمت وأشعل اللغافة التي كان ما يزال يمسكها بين أصابعه .

ثم قال قبل ان يطفئ عود الثقاب :

— ومع ذلك ، فلو كنت املك ما فيه الكفاية من القوة والصبر ...

ونفخ على عوده وسحق طرفه المضم على ظهر يده اليسرى .

— انني أدرك جيداً الى أي درك من الحياة سأصل . لن اجعل من حياتي تجربة . سأكون تجربة حياتي . أجل ، انني أدرك جيداً ايّ هوس سيملائي بكل قوته . فيما مضى كنت أصغر مما ينبغي . وكنت أقف في الوسط . اما اليوم ، فقد أدركت ان المرء حين يعمل ويحب ويتألم فانما يعيش بالفعل ، ولكنه يعيش بقدر ما يشفّ ويتقبل قدره كأنعكاس فريد لقوس قزح من الفرح والأهواء هو نفسه بالنسبة للجميع .

قال زغرو :

— هذا صحيح . ولكنني كنت أستنتج . ستبقى وحيداً يوماً ما . وهذا كل شيء . ولكن اجلس واستمع الي . ان ما سبق لك ان ذكرته لي قد آثار انتباهي . هناك شيء بالذات يهمني ، لأنه يؤكد كل ما علمتني اياه تجربتي كإنسان ، انني احبك كثيراً يا مرسو بسبب جسدك على كل حال . انه هو الذي علمك كل هذا . واليوم يبدو لي انني استطيع ان اكلمك بقلب مفتوح .

عادم مرسو فجلس بهدوء ودخل وجهه في النور المحمر لنار توشك على النهاية . وفجأة ، وفي مرتبة النافذة ، أحسّ خلف الستائر الحربية بما يشبه الانفتاح في

الليل . شيء ما كان يسترخي خلف الزجاج . ونفذ ضوء حليبي إلى الغرفة ،
وتعرف مرسو على شفتي الانسان البوذي الكامل الساخرتين والمتحفظتين ، وعلى
النحاسيات المنحوتة . تعرف على الوجه المألوف الخاطف لليالي المكوكة والقمرية
التي كان يحبها كثيراً . كان ذلك كما لو أن الليل كان قد فقد بطانته من الغيوم
فأخذ يلعب في ألقه الهاديء . وعلى الطريق ، كانت السيارات تجري بسرعة أقل .
وفي أعماق الوادي الصغير ، كان اضطراب مفاجيء يهيء المصافير للنوم . وكانت
تسمع خطى امام البيت . وفي هذا الليل كانت الاصوات ترن أكثر اتساعاً
واكثر صفاء كحليب على العالم . وبين النار المحمرة واختلاج يقظة الغرفة وبين
الحياة الحفية للاشياء المألوفة التي كانت تحيط به ، كانت قصيدة خاطفة تنسج
وتهيء مرسو ليتقبل من قلب آخر بثقة وحب ما سيقوله زغرو . انقلب قليلاً
على مقعده ، وامام السماء اخذ يستمع إلى قصة زغرو الغريبة .

بدأ يقول :

- انني متأكد من أننا لا نستطيع ان نكون سعداء بلا مال . هذا كل ما
في الأمر . انني لا احب السهولة ولا الرومنطيقية . أحب ان افهم . لاحظت
عند بعض النخبة انهم يعتقدون في نوع من التفاخر الروحي بأن المال غير ضروري
للسعادة . هذه بلادة . وهذا خطأ ، وهو إلى حد ما جبن . أترى يا مرسو ،
بالنسبة لرجل كريم النسب ، فان السعادة ليست امراً معقداً . يكفيه ان يستعيد
قدر الجميع ، ليس بارادة الزهد كما يفعل عدد كبير من الرجال الكبار المزيفين ،
ولكن بارادة السعادة . على انك بحاجة إلى وقت لتكون سعيداً ، كثير في
الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . وفي جميع الحالات تقريباً تتلف
حياتنا لنكسب مالاً . بينما يجب ، بالمال ، ان نكسب وقتنا . هذه هي المشكلة
التي اثارت اهتمامي في وقت ما . انها دقيقة واضحة .

توقف زغرو وأغمض عينيه . وكان مرسو يتطلع إلى السماء باصرار . بعد

لحظة ، غدت أصوات الطريق والقرية مميزة ، واستأنف زغرو حديثه من غير ما استمجال :

— . . اوه ، انا أدرك جيداً ان غالبية الرجال الأغنياء لا يملكون أي حس بالسعادة ، ولكن السؤال ليس هنا . ان يكون لديك مال ، معنى ذلك هو ان يكون لديك وقت . انني لا أريد عن هذا . ان الوقت يُشترى . كل شيء يشترى . ان تكون او ان تصبح غنياً ، معناه ان تملك الوقت لتصبح سعيداً عندما يكون الانسان جديراً بان يكونه .

ونظر إلى باتريس وقال :

— مرسو ، عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري ، كنت قد أدركت ان كل كائن يملك حس السعادة وارادتها ومطلبها كان يحق له ان يكون غنياً . وكان مطلب السعادة يبدو لي اشرف ما في قلب الانسان . وكان كل شيء يُبرَّر بها في نظري . ان قلباً نقياً كان كافياً لذلك .

وأخذ زغرو ، الذي كان ما يزال ينظر إلى مرسو ، يتكلم فجأة بهدوء اكثر ، بصوت بارد وقاس ، كما لو انه كان يود ان يخرج مرسو من شروده الظاهري :

— في الخامسة والعشرين بدأت أجمع ثروتي . لم أراجع امام الاحتيال . لم يكن لي ان أراجع امام أي شيء . وبعد سنوات ، كنت قد حققت ثروتي النقدية كلها . تصوّر يا مرسو ، ما يقرب من المليونين . كان العالم يتفتح لي ، ومع العالم ، الحياة التي احلم بها في العزلة والاضطرام .

وعاود زغرو ، بعد فترة ، بصوت مخنوق :

— تلك هي الحياة التي كنت سأحياها ، لولا الحادث الذي أودى بساقي في

الحال تقريباً . لم أعرف كيف أنتهي . وها انا الآن . انك تدرك جيداً ، اليس كذلك ، انني لم اكن اريد ان اعيش حياة مستضعفة . ومنذ عشرين عاماً ومالي هنا ، بالقرب مني . لقد عشت بتواضع . لم اكد أنقص ثروتي .

وأمر يديه القاسيتين على جفنيه ، وقال بصوت اكثر انخفاضاً :

— يجب ألا تكون الحياة أبداً بقبيلات عاجز..

في هذه اللحظة ، كان زغرو قد فتح الصندوق الصغير الذي كان يلامس المدفأة ، واثار الى خزنة نحاسية ضخمة مسمرة مع مفتاحها . وكانت على الخزنة رسالة بيضاء ومسدس كبير اسود . وعلى نظرات مرسو الفضولية بلا تعمّد ، كان زغرو قد ردّ بابتسامة . كان ذلك بسيطاً جداً . ففي الايام التي كان يحس فيها اكثر مما ينبغي المأساة التي كانت قد حرمته من حياته ، كان يضع امامه هذه الرسالة التي لم يكن قد أرّخها ، والتي كانت تشكل قسماً من رغبته في ان يموت ، ثم كان يضع السلاح على الطاولة ويقرب المسدس ويلصق عليه جبينه ويدير عليه صدغيه ، ويخفف على برودة الحديد حتى وجنتيه . مكث على هذه الحالة وقتاً طويلاً وهو يترك اصابعه تنبه على طول الزناد ، ويحس فرضة التوقف ، الى ان يصمت العالم من حوله ويلفه النفاس . فينغمر كيانه كله في الاحساس بجديد بارد ومتسخ يمكن للموت ان يخرج منه . وحين يحس انه يكفيه ان يؤرخ رسالته وان يُطلق ، ويتحقق من عبثية سهولة الموت ، كانت مخيلته تنشط بما فيه الكفاية لتمثل له ، بكل قطاعته ، ما يعنيه ، في مفهومه ، نفي الحياة . فكان يحمل في نصف اغفائه رغبته كلها في ان يحترق بعد وسط الكرامة والصمت . وحين كان يستيقظ تماماً ، وقمه ما يزال مليئاً بريق مرّ ، كان يلحق انبوب السلاح ويدخل فيه لسانه ويدمدم اخيراً بسعادة مستحيلة .

— لقد أضعت بالطبع حياتي . ولكنني كنت على حق آنذاك . كل شيء من

اجل السعادة ضد العالم الذي يحولنا بمهاقته وعنفه .

وضحك زغرو أخيراً وأضاف :

- أترى ، يا مرسو ، ان سقوط حضارتنا وقساوتها تقاس بهذه المسئلة السخيفة التي تقول بان ليس للشعوب السعيدة تاريخ .

كان الوقت متأخراً جداً . كان مرسو مخطئاً في تقديره ذلك . وكان رأسه يبعج بهيجان محموم ؛ وكان في فمه حرارة اللغافات التي كان قد دختها وحازتها . وكان الضوء من حوله متواطئاً ابداً . ولأول مرة ، منذ ان استمع الى قصته ، التفت ناحية زغرو وقال :

- اعتقد أنني أفهم .

وكان العاجز تعباً من مجهوده الطويل يتنفس بخفوت . على أنه قال بجهد بعد فترة صمت :

- أودّ ان اتأكد من أنك قد فهمت . لا تجعلني أقول ان المال يصنع السعادة . انما اقصد فقط أنه بالنسبة لطبقة ما من البشر تصبح السعادة ممكنة . (شرط ان يؤمن الوقت) وان تلك المال هو ان تتحرر من المال .

كان مكوماً على كرسيه وتحت أغطيته . وكان الليل مطبقاً على نفسه فلم يعد مرسو يرى الآن رولان زغرو تقريباً . وتبع ذلك صمت طويل ، وكان مرسو يرغب في ان يعيد الاتصالات ويتأكد من حضور هذا الانسان في الظلمة ، فنهض وكأنه يتحسس وقال :

- انها لمحاظة جميلة يتعرض لها المرء .

قال الآخر خفية :

- اجل . ومن الافضل ان نراهن على هذه الحياة بدلاً من ان نراهن على الأخرى . أما بالنسبة لي ، فانها بالطبع مسألة اخرى .

فكر مرسو : « خرقه اصفى في العالم » .

- منذ عشرين عاماً لم استطع أن أقوم بتجربة سعادة ما . هذه الحياة التي تنهشني ، لم اكن لأتعرف عليها تماماً . وان ما يخيفني في الموت هو هذا اليقين الذي يحمله لي من ان حياتي قد استهلكت دوني . على الهامش . هل تفهم ؟

وبلا تمهيد ، انبعثت في الظلمة ضحكة قتية جداً :

- هذا يعني ، يا مرسو ، في حقيقة الأمر ، أنه ما يزال لي ، في حالي ، بعض الأمل .

وتقدم مرسو بضع خطوات نحو الطاولة .

قال زغرو :

- فكر في هذا كله ، فكر فيه كله .

واكتفى الآخر بان قال :

- هل استطيع ان اضيء النور ؟

- ان أردت .

وبدا أنف رولان وعيناه المستديرتان اكثر شعوباً في النور المشع . كان يتنفس بجهد . وقابل حركة مرسو ، وهو يمد اليه يده ، بأن هز رأسه وضحك ضحكاً أقوى مما ينبغي :

- لا تبالي في حملي على محمل الجد . انت تدرك ان الهيئة المأساوية التي يتخذها الناس امام ساقى المبتورتين تغيظني دائماً .

وفكر الآخر : « انه لا يكثرث بي » .

- لا تنتظر بطريقة مأساوية إلا الى السعادة . فكر بهذا جيداً ، يا مرسو .
ان لك قلباً نقياً . فكر بهذا .

ثم نظر اليه في عينيه وقال له بعد فترة :

- وأنت تملك ايضاً ساقين، فذلك أمر لا يفسد شيئاً .

وابتسم إذ ذاك وحرك جرساً صغيراً :

- انصرف يا صغيري ، انني أريد ان أبول .

الفصل الخامس

حين عاد مرسو الى منزله مساء هذا الأحد ، وكانت افكاره كلها متجهة
نحو زغرو ، قبل ان يدخل غرفته ، سمع نواحاً كان يأتي من شقة كردونا ،
البراميلى . طرق الباب فلم يحبه أحد . كان الانين مستمراً . فدخل من غير ما
تردد . كان البراميلى متكوراً على سريره ، وكان يبكي وهو يغصّ غصات طفل
كبيرة . وكانت عند قدميه صورة امرأة عجوز . « لقد ماتت » . قال ذلك
لمرسو بجهد كبير . وكان ذلك صحيحاً ، وكان قد مضى عليه وقت طويل .

كان اسمّ ، نصف أخرس ، شريراً وفضلاً . وكان حتى ذلك الحين قد عاش
مع اخته . ولكنها ، اذ تعبت من شرسته ومن استبداده ، فقد التجأت بالقرب
من اولادها . وبقي هو وحده ، حائراً حيرة رجل عليه ان ينظف منزله ويحضر
طعامه لأول مرة . وكانت اخته قد روت نزاعاتها لمرسو الذي كانت قد التقت
به يوماً في الشارع . وكان هو في الثلاثين من عمره ، قصيراً ، لا بأس بجماله .
وكان قد عاش منذ طفولته مع امه . كانت المخلوق الوحيد الذي أوحى اليه
بخوف موسوس اكثر مما هو مبرّر . كان قد أحبها بروحه الفظة ، أي بشراة
واندفاع مزوجين . وخير دليل على محبته كانت طريقتة في مضايقة المرأة
المعجوز بتلفظه بأبداً الكلام عن الكهنة وعن الكنيسة . ولئن كان قد عاش

كل هذا الوقت الطويل مع امه ، فلأنه ايضاً لم يكن قد أوحى لأية امرأة بتعلق رصين . إلا ان المغامرات النادرة أو البيت العمومي كانت تسمح له ان يدعي الرجولة .

وماتت الأم . ومنذ ذلك الحين ، عاش مع اخته . كان مرسو قد اجرهما الغرفة التي كانا يحتلانها . وكان الاثنان وحدهما يشقيان ويرقيان حياة طويلة قذرة وسوداء . وبصعوبة كانا يتمكنان من ان يتحادثا . ولهذا كانت تمر أيام كاملة من غير ان يتبادلا كلمة واحدة ، ولكنها كانت قد رحلت . ولقد كانت اكثر كبرياء من ان يتشكى ويطلب منها ان تعود . كان يعيش وحده . في الصباح كان يأكل في المطعم وفي المساء يأكل في منزله شرائح من لحم الخنزير ، كان يترك غرفته في اسوأ حال من القذارة . على انه ، في بعض الاحيان ، في أول الأمر ، يوم الاحد ، كان يأخذ رقعة ويحاول ان ينظم الغرف بعض التنظيم . ولكن بعض سذاجات رجالية ، وقدراً على المدفأة ، كانت فيما مضى مزهرة ومزينة ، توحى بالأمال الذي كان كل شيء يسبح فيه . وان ما كان يسميه ترتيباً كان يرتكز على اخفاء القوضى وستر ما كان مبعثراً وراء الوسائد او اكثر الاشياء غرابية على الصوان . ومع ذلك ، فقد انتهى به الامر الى السأم ، فلم يكن حتى ليصلح سريريه وكان ينام مع كلبه على الاغطية الوسخة النتنة . وكانت اخته قد قالت لمرسو : « انه يتخابث في المقاهي . ولكن المؤجرة قالت لي انها كانت قد شاهدته يبكي وهو يغسل ثيابه » .

وفي الواقع ، وبالرغم من القساوة التي كان عليها ، فان رعباً ما كان يستولي على هذا الرجل في بعض الساعات ويجعله يقدر مدى التخلي عنه . وكانت تقول لمرسو انها بالطبع كانت تعيش معه بداعي الشفقة . ولكنه

كان يمنعها من ان ترى الرجل الذي كانت تحبّه . على ان ذلك لم يكن له كبير أهمية في سنّها . ولقد كان رجلاً متزوجاً . وكان يحضر لصديقه زهوراً كان قد قطفها من أسبجة الضواحي وبرتقالاً ومشروبات كان يكسبها من المعرض . صحيح انه لم يكن جميلاً؛ ولكن الجمال لا يؤكل سلطة . ثم انه كان طيباً جداً . كانت متعلّقة به هو الذي كان متعلّقاً بها . أليكون الحب شيئاً آخر ؟

كانت تفصل له ثيابه وتجهّد لكي تبقى نظيفاً . وكان من عادته ان يحمل مناديل مطوية على شكل مثلث ومعقودة حول العنق ، وكانت تصنع له مناديل بيضاء جداً . وكان ذلك لإحدى مسراتها .

ولكن الآخر ، الأخ ، لم يكن يريد ان تستقبل صديقها . فكان عليها ان تراه خفية . وكانت قد استقبلته مرة . وإذفاجأهما ، فقد حصلت مشاجرة عنيفة . كان المندبل المثلث قد بقي بعد ذهابها في ركن وسخ من الغرفة ، وكانت ان التجأت عند ابنها . وكان مرسو يفكر بهذا المندبل امام الغرفة القذرة التي كانت تفتح لعينيه .

وفي تلك الفترة ، كان الناس قد رثوا مع ذلك للبراميلي ان يكون متوحداً الى هذا الحد . كان قد حدث مرسو عن زواج ممكن . وكان المقصود امرأة اكبر منه سنّاً

ولا شك انه كان يغريها أمل 'مداعبات' شابة وقوية . وكانت ان حصلت عليها قبل الزواج . وبعد فترة ، تراجع عشيقها عن المشروع ، معلناً انه كان يجدها أسنّ مما ينبغي . وبقي وحيداً في هذا البيت الصغير من الحي . وشيئاً

فشيئاً طوقته القذارة وحاصرته وضربت سريره ، ثم غمرته على نحو راسخ . كان البيت قبيحاً أكثر مما ينبغي . وبالنسبة لرجل فقير لا يجد المسرة في بيته ، ثمّة بيت أقرب منلاً وأكثر غني ، ومضئاً ، ومرحّباً دائماً : هو المقهى . كان رواد هذا الحي حيويين بنوع خاص . وفيه كانت تهين حرارة القطيع ، تلك الحرارة التي هي الملاذ الأخير ضد أهوال الوحدة ومتطلباتها القادمة . وقد اتخذ الرجل الأبكم فيه منزلاً ، كان مرسو يحده هناك في جميع الأمسيات . وكان بفضلهم يؤخر الى أبعد حد ممكن لحظة الرجوع . وفيهم كان يستعيد مكانه بين البشر . وهذا المساء بالذات لم تكن المقاهي ، بلا شك لتكفي . واذ عاد الى منزله ، فلا بد انه كان قد اخرج هذه الصورة وايقظ معها اصداء الماضي الميت . فوجد من جديد تلك التي كان قد أحبها وعذبها . وفي الغرفة الكبرية ، وحيداً أمام لا جدوى حياته ، وقف مستجمعاً قواه الاخيرة ، ليسترد الماضي الذي كان يشكل سعادته . كان ينبغي افتراض ذلك على الأقل ، وافترض أن التقاء هذا الماضي بحاضره البائس قد فجر شرارة الهبة ، مادام قد أخذ يبكي .

وككل مرة كان فيها مرسو يحيد نفسه أمام مظهر قاسٍ من مظاهر الحياة ، فقد كان بلا قوة ، ممتلئاً احتراماً أمام هذا الألم الوحشي . وقد جلس على الأغذية القذرة المدعوك ووضعه يده على كتف كردونا . كان امامه ، على شرف الطاولة المشمع ، قنديل كاز ، وزجاجة خمر ، وفتات خبز ، وقطعة جبن وصندوق ادوات . وفي السقف تدلت بيوت انسجة العناكب . وكان مرسو ، الذي لم يسبق له ان دخل هذه الغرفة منذ موت امه ، يحدد بالقذارة والبؤس المزفت الذي كان يملأها ، الطريق الذي قطعه هذا الإنسان .

كانت النافذة التي تطل على الملعب مغلقة ، اما الأخرى فلم تكد تكون مفتوحة . وكان قنديل الكاز يرسل نوره المستدير الهاديء على

الطاولة ، وعلى قدمي مرسو وكردونا ، وعلى كرسي كان يواجهها على مقربة من الحائط . في هذه الأثناء كان كردونا قد أمسك الصورة بين يديه : كان ينظر اليها ويقول ، وهو ما يزال يقبلها ، بصوت العاجز الذي كانه : « مسكينة امي » . ولكنه انما كان يرثي نفسه كذلك . كانت قد دفنت في المقبرة القبيحة التي كان مرسو يعرفها جيداً من الطرف الآخر في المدينة .

وأراد ان يذهب ، فقال وهو يتعجب الكلام لكي يفهم :

— يجب — ان — لا — تبقى هكذا .

قال الآخر بمشقة : « ليس لدي عمل بعد » ، وقال بصوت متقطع وهو يمد الصورة : « كنت أحبها » ، وترجم مرسو : « كانت تحبني »

— « لقد ماتت » وفهم مرسو : « انتي وحيد » .

— كنت قد صنعت لها هذا البرميل الصغير لعيدها .

على المدفأة ، كان هناك برميل صغير من الخشب المدهون مزين بالدوائر النحاسية وحنفية لماعة . وترك مرسو كتف كردونا الذي استرخى على الوسائد القذرة . ومن تحت السرير انبعث نأوه عميق ورائحة منفرة . وخرج الكلب على مهل ، وهو يحوف كليتيه . ووضع على ركبتي مرسو رأسه ذا الأذنين الطويلتين والعينين المذهبتين . كان مرسو ينظر الى البرميل الصغير . وفي الغرفة القذرة حيث كان هذا الرجل يتنفس بجهد ، وحرارة الكلب تحت أصابعه ، كان يغمض عينيه على اليأس الذي كان ، لأول مرة منذ زمن بعيد ، يتصاعد فيه كبحر . أمام الشقاء والوحدة ، كان قلبه اليوم يقول : « لا » وفي الحزن الكبير الذي كان يملأه ، كان مرسو يحس جيداً ان تمرده كان الشيء الوحيد الحقيقي في نفسه ، وان كل ما تبقى كان بؤساً ومجاملة . وكان الشارع الذي كان

البارحة يعيش تحت نوافذه ما يزال يتليء بأصواته . وتصاعدت ، في الحداثق تحت السطيحة ، رائحة اعشاب . قدّم مرسو لكردونا لفافة ، فدخّن كلاهما من دون ان يتكلما . ومرت آخر الحافلات ، ومرت معها الذكريات التي ما تزال حية للرجال والاضواء . ونام كردونا ثم ما لبث ان شخر أنفه المليء بالدموع . وكان الكلب المكور عند قدمي مرسو يتحرك احياناً ويئن تحت احلامه . وعند كل حركة ، كانت رائحته تصعد نحو مرسو . كان مرسو مستنداً الى الحائط وكان يحاول ان يضغط في قلبه تمرد الحياة . أخذ القنديل يدخن ، ويسود ، واخيراً انطفأ باعثاً رائحة كاز كريهة .

كان مرسو يهوّم ، واستيقظ وعيناه محدقتان على زجاجة الخمر . ونهض في جهد كبير . وذهب نحو نافذة داخلية وتجمّد امامها . ومن اعماق الليل ، كانت تصعد نحوه نداءات والوان من الصمت . وعند حدود العالم الذي كان يغفو هنا ، تصاعد طويلاً نداء مركب يدعو الناس الى الرحيل والى بداءات جديدة .

وفي اليوم التالي ، كان مرسو يقتل زغرو . ويعود الى منزله وينام عصر يوم بأكمله ، ويستيقظ عموماً . وعند المساء استدعى طبيب الحي ، وهو ما يزال مستلقياً ، فأبلغه بأنه مصاب بنزلة وافدة . وأتى موظف من مكتبه حين علم بأخباره حاملاً معه طلبه للإجازة . وبعد ايام ، كان كل شيء قد دبّر . محضر الموت والتحقيق . وكان كل شيء يبرر فعل زغرو . وجاءت مارت لترى مرسو ، وقالت وهي تنهد : « هناك ايام يريد فيها الانسان ان يكون محله . ولكن هناك مرات ، يحتاج فيها الانسان الى مزيد من الشجاعة ليعيش اكثر مما يحتاج لينتحر » . وبعد اسبوع كان مرسو يبحر الى

مرسيليا . كان ذاهباً ، بالنسبة للجميع ، ليراق في فرنسا . ومن ليون ، تلقت مارت رسالة قطيعة عانت منها كبرياؤها . وفي الوقت نفسه ، كان يعلن لها ان وظيفة استثنائية كانت قد عرضت عليه في اوروبا الوسطى . وكتبت له مارت رسالة عن ألمها وضعتها في شباك البريد . ولم تصل هذه الرسالة قط لمرسو ، الذي أصيب ، في اليوم التالي لوصوله الى ليون ، بنوبة حمى عنيفة وقفز الى قطار متوجه الى براغ . ومع ذلك ، فقد كانت مارت تخبره انهم ، بعد عدة ايام من عرض الجنة ، كانوا قد دفنوا زغرو وأنهم كانوا بحاجة الى كثير من الوسائد لكي يسندوا جذعه في النعش .

القِسمُ الثَّاني

الموت الواعي

الفصل الأول

قال الرجل بالألمانية :

— أريد غرفة .

كان البواب الجالس امام لوحة محملة بالمفاتيح مفصلاً عن البهو بطاولة عريضة . وقد تفحص الشخص الذي دخل الساعة ، ومعطفه المشمع الرمادي ملقى على كتفيه ويتحدث وهو يدير رأسه .

— بالطبع ، أيها السيد ، الليلة ؟

— لا . لا أدري .

— عندنا غرف بثمانية عشر كوروناً وبخمس وعشرين وبنلثين .

كان مرسو ينظر إلى شارع براغ الصغير الذي كان يُرى من خلال باب الفندق الزجاجي ، كانت يده في جيبه مكشوف الرأس تحت شعره المشعث ، وعلى بعد خطوات ، كان يسمع صرير الحافلات التي كانت تهبط جادة ويتسلاس .

— أية غرفة ترغب يا سيدي ؟

قال مرسو ، ونظراته ما تزال مسمرة على الباب الزجاجي :

— لا فرق .

فأخذ البواب مفتاحاً من على اللوحة وقدمها لمرسو .

قال : — الغرفة رقم ١٢ .

وبدا على مرسو انه يستيقظ .

— كم أجرتها ، هذه الغرفة ؟

— ثلاثون كوروناً .

— انها أغلى مما أستطيع . أريد غرفة بثمانية عشر كوروناً .

وأخذ الرجل مفتاحاً جديداً، من دون ان ينبس بكلمة ، وأشار إلى النجمة النحاسية التي كان المفتاح يتدلى منها : الغرفة رقم ٣٤ .

حين جلس مرسو في غرفته ، خلع سارته ، وشد قليلاً ربطة عنقه ، من دون ان يفكها، وشمّر أكمام قميصه بطريقة آلية . واقترب من المراة فوق المغسلة ، للملاقة وجه ذي ملامح مشدودة ، مسمرٌ في الاماكن التي لم تكن تسودها ذقن نمت منذ بضعة أيام . وكان شعره المشعث من سباق الترام ، يتهدل متناثراً على جبينه حتى تبيتين عميقتين بين الحاجبين كانتا تضيفان على نظره نوعاً من التعبير الجاد الحنون استلقت نظره بالذات . وعندها فقط فكّر في أن ينظر حوله إلى الغرفة الحقيرة التي كانت تشكل ثروته الوحيدة والتي لم يكن يرى فيها وراءها أي شيء على الإطلاق . وعلى سجادة قدرة ذات رسوم ازهار ضخمة صفراء على أرضية رمادية ، كانت جغرافية كاملة من القذارة ترسم عوالم لزجة من البؤس . وخلف المشعاع الضخم ، كانت زوايا دهنية وموحلة . وكان المعكاس مكسوراً فكانت ترى منه أدوات التماس النحاسية . وفوق مرير ذي صفائح نحاسية ، كان خيط قد ورنشه الدهن وجفت عليه بقايا ذباب قديمة ، تتدلى منه لمبة من دون كمية كانت تلزق بالأصابع . ولاحظ مرسو الشراشف التي كانت نظيفة . وأخرج أدوات زينته من الحقيبة ونظّمها واحدة فواحدة على المغسلة . ثم تأهب ليفسل يديه ، ولكنه أقفل الحنفية التي لم يكبد يفتحها، ثم ذهب ليفتح نافذة بلا ستائر . كانت تطل على فناء خلفي فيه حوض غسيل وعلى جدر مثقوبة بنوافذ صغيرة على إحداها كان غسيل يحف . وتمدد مرسو وسرعان ما غفا . واستيقظ مبتلاً بالعرق، مختل الهندام ، ودار لحظة في غرفته ، ثم أشعل سيكارة وجلس ، فارغ الرأس ، ونظر إلى ثنيات سرواله المدعوك . وفي فمه كانت تمزج مرارة النوم والسيكارة . ونظر إلى غرفته مرة أخرى وهو يحسك جنبه تحت

قميصه ، وأحس بعذوبة مريمة تتصاعد إلى فمه أمام هذا القدر الهائل من الاستسلام والوحدة . وكان يكفيه ان يحس نفسه في هذه الغرفة بعيداً إلى هذا القدر عن كل شيء وحتى عن حمّاه ، ويتحقق بهذا الوضوح ما في اعماق أكثر الحيات تنظيماً من عبث وبؤس ، حين ينتصب امامه الوجه المخجل الخفي لنوع من الحرية يُولد من الملتبس والمشبه . وحوله كانت ساعات واهنة وليّنة ، وكان الزمن كله يبقبق كأنه الوحل .

دُق الباب بعنف ، فاضطرب مرسو ، وتذكر أنه سبق له ان أوقف بضربات شبيهة بهذه . وفتح فوجد نفسه أمام عجوز مشقر الير ، مسحوق تحت حقيقتي مرسو اللتين بدا عليه ضخمتين . كان يحتنق من الغضب ، وكانت أسنانه المفرقة تخرج من خلالها سيلاً من الكلام المليء بالشتائم والاحتجاجات . وإذا ذاك تذكر مرسو القبضة المكسورة التي كانت تجعل كبرى الحقيبتين متعبة إلى هذا الحد بحملها . واراد ان يعتذر ، ولكنه لم يسدر كيف يقول انه لم يكن يعلم ان الجمال كان عجوزاً إلى هذه الدرجة . ولكن العجوز القصير قاطعه :

— أربعة عشر كوروناً .

وتعجب مرسو : من أجل يوم في المستودع ؟

وفهم عندئذ من الشروح الطويلة التي قدّمت له ان العجوز كان قد استقل سيارة أجرة ، ولكنه لم يجرؤ على القول انه كان بإمكانه ان يستأجر سيارة بنفسه في هذه الحالة ، ودفع بدافع من الملل . وحين أغلق الباب أحس مرسو بدموع لا يمكن تفسيرها غملاً صدره . ودقت ساعة قريبة جداً الرابعة . كان قد نام ساعتين . كان يدرك ذلك ، ولم يكن مفصلاً عن الشارع الا بالبيت الذي كان يواجهه ، وكان يحس بزخم الحياة الصامتة السرية التي تسيل منه . من الأفضل ان يخرج . وغسل مرسو يديه طويلاً جداً ، ولكي يبرد أطافره ، عاد فجلس على حافة السرير وحرك بانتظام المبرد ، وصغرت اثنتان أو ثلاث صفارات في

الساحة بعنف شديد جعل مرسو يعود إلى النافذة. وإذا ذاك رأى تحت البيت
مرا مقبباً يؤدي إلى الشارع . كانت ذلك يتم كما لو ان جميع أصوات الشارع ،
الحياة المجهولة كلها للناحية الأخرى من البيوت ، ضجيج الرجال الذين يملكون
عنواناً وعائلة واختلافات مع عم ، واطعمة مفضلة على المائدة ومرضاً مزمناً ،
بالإضافة إلى ازدحام الناس كالنمل والذين كانت لكل واحد منهم شخصيته - كان ذلك كله
كضربات كبيرة مفصولة إلى الأبد عن قلب الحشد الهائل يتسلل من الممر
ويتصاعد على طول الملعب كله لينفجر كفقايع في غرفة مرسو. وكان يكفيه ان
يحس نفسه نقيذا إلى هذا الحد ، منتبهاً إلى هذا الحد لكل إشارة من العالم حتى
يدرك الشق العميق الذي كان يفتحه على الحياة . وأشعل سيكارة أخرى ولبس
بعصية . وأحس وهو يزرر أزرار سترته بالدخان يخز جفونه . ورجع إلى
المفصلة يسمح عينيه واراد ان يشرح شعره . ولكن مشطه كان قد اختفى . وكان
النوم قد شعث شعره ، وعبثاً حاول ان يعيد تصفيفه . وهبط كما هو ، شعره
متهدل على وجهه ، ومنكوش من الخلف . كان يحس بمزيد من الاذلال ؛ وإذا
أصبح في الشارع ، قام بدورة حول الفندق لينفذ امام الممر الصغير الذي كان قد
لاحظه . كان الممر يفتح على جادة المختارية القديمة . وفي المساء الثقيل بعض الشيء
الذي كانت يهبط على براغ ، كانت قمم قباب المختارية القوطية وقمم كنيسة
تينسكي القديمة تتقاطع سوداء . وكان جمع غفير يجري تحت الشوارع الصغيرة
المقنطرة . وكان مرسو ، امام كل امرأة ، يترصد النظر الذي كان يسمح له بان
يعتقد نفسه قادراً بعد على ان يلعب لعبة الحياة الرهيفة الخنون . ولكن
الاشخاص الاصحاء يملكون طريقة فنية طبيعية تتجنب النظرات المحومة . كان
غير حليق الذقن ، مشعثاً ، في عينه تعبير حيوان قلق ، سرواله مدعوك كقبة
قميصه . كان قد فقد هذا التفه العجيب الذي تضيفه بذلة مفصلة تفصيلاً جيداً
أو مقود سيارة . كان الضوء يصبح قاسياً والنهار يتباطأ على ذهب القباب
الباروكية التي كانت ترى في قلب الساحة . توجه نحو احدها ، ودخل

الكنيسة ، واذا أسرته الرائحة القديمة ، فقد جلس على مقعد . كانت القبة معتمة تعتيماً تاماً ، ولكن ذهب تيجان العواميد كان يصب ماء مذهباً سرياً كان يسيل في اضلاع العواميد حتى وجه الملائكة المنفتح والقديسين المقهقين . وكانت ثمة عذوبة ، أجل ، لقد كانت هناك عذوبة ولكنها كانت مرة الى حد جعل مرسو يرتد الى العتبة ، وحين انتصب واقفاً على الدرجات ، تنفس هواء الليل الذي غدا الآن اكثر رطوبة والذي كان ينغم فيه . وبعد لحظة اخرى ، رأى أول نجمة تتقد ، نقية معراة بين قمم قبب كنيسة نينسكي .

وأخذ يبحث عن مطعم رخيص . وغرق في شوارع أشد ظلاماً وأقل مارة . وبالرغم من ان المطر لم يسقط في النهار ، فإن الأرض كانت مبتلة ، وكان على مرسو ان يتجنب البرك السوداء بين البلاطات النادرة . ثم أخذ مطر خفيف ناعم يطل . ولم تكن الشوارع المأهولة بعيدة من غير شك ، لأن أصوات منادي الصحف كانت تسمع الى هنا وهم ينادون « النارودنا بوليتيكا . وكان هو ، اثناء ذلك ، يطوف بالمكان . ثم توقف فجأة . كانت رائحة غريبة تتصاعد من اعماق الليل . كانت واخزة ، حامزة ، وكانت توقظ فيه جميع امكانيات القلق . كان يحسها على لسانه ، في اعماق انفه وعلى عينيه . كانت بعيدة ، ثم مالت على زاوية الشارع بين السماء المسودة والبلاطات الدهنية والديكة ، كأنه سحر رديء للبالى براغ . تقدم نحوها ، وكانت تغدو ، كلما تقدم ، اكثر حقيقة . كانت تجتاحه بأكمله وكانت تخز عينيه بالدموع وتحلفه لا حول له ولا قوة . وعلى زاوية شارع ، أدرك السبب ، كانت امرأة عجوز تبيع خياراً مكبوساً بالخل وكانت رائحته هي التي امسكت بمرسو . وتوقف مارة ، واشترى خياراً لفتها له المعجوز بورقة . خطا بضع خطوات ، ثم فتح لفته أمام مرسو ، وقضم بلاء أسنانه الخيارة التي كان لحمها الممزق السائل تفوح منه رائحة أشد .

كان مرسو منزعجاً ، فاستند على ركيزة وتنفس لحظة طويلة كل ما كان يقدمه

له العالم من غريب ومتوحد في هذه الدقيقة . ثم رحل ودخل ، من غير ان يفكر ، الى مطعم كان ينبعث منه لحن أكورديون . ونزل بضع درجات ، وتوقف في منتصف السلم . ووجد نفسه في قبو صغير معتم كفاية ومليء بالاضواء الحمراء . لا شك ان هيئته كانت غريبة لأن الاكورديون بدأ ينغم بحفوت اكثر ، ولأن الأحاديث توقفت والزبائن التفتوا نحوه . في الزاوية كانت فتيات يأكلن وشفاهن مكتنزة . وكان زبائن آخرون يشربون جعة التشيكوسلوفاكيا السمراء العذبة . وكثيرون كانوا يدخلون من غير ان يأكلوا . واحتل مرسو طاولة طويلة بما فيه الكفاية كان يشغلها رجل واحد . كان الرجل طويلا ونحيلا ، اصفر الزغب ، وكان مكوّمًا على كرسيه ، ويسداه في جيبه ، يزيم شفثيه المشققتين حول طرف عود ثقاب كان متضخما من الريق ، وكان يمصه بصوت كريحه او كان يمرره من زاوية الى اخرى من فمه . حين جلس مرسو ، لم يكن الرجل يتحرك ، فاستند الى الحائط ، ووجه عود الثقاب ناحية القدام وثنى عينيه خفية . في هذه اللحظة رأى مرسو نجمة حمراء على عروته .

واكل مرسو قليلا وبسرعة . لم يكن جائعا . وكان الاكورديون ينغم الآن بشكل اوضح . وكان الرجل الذي يحركه يحدق بالقادم الجديد . وفي محاولتين متكررتين ، حمل هذا الأخير عينيه بالتحدي وحاول ان يثبت نظره . ولكن حماء كانت قد أوهنته . كان الرجل ما يزال ينظر اليه . وفجأة ، انفجرت إحدى الفتيات بالضحك ، فمض الرجل ذو النجمة الحمراء كبريته بقوة وكانت تنفتح عليها فقاعة صغيرة من اللعاب . اما الموسيقى ، فقد اوقفت الرقص الصاخب الذي كان يعزف نغمته ، من دون ان يتوقف عن النظر الى مرسو ليباشر لحنا بطيئا مصفرا بكل غبار القرون . في هذه اللحظة فتح الباب امام زبون جديد . لم يره مرسو ، على انه ، من الفتحة ، تسلفت بخفة رائحة الخل والخيار . فملأت دفعة واحدة القبو الصغير المعتم ، غتسلطة بلحن الاكورديون السحري ، مضخمة فقاعة اللعاب على كبريته الرجل ، محيلة الاحاديث فجأة

اكثرت تعبيراً ، كما لو انه من حدود الليل الذي كان يغفو على براغ كان كل معنى العالم القديم الخبيث والمؤلم يأتي ليلوذ بحرارة هذه القاعة وهؤلاء الرجال . وأحس مرسو الذي كان يأكل مربى مسكراً أكثر مما ينبغي ، والذي كان مقدوفاً فجأة حتى نهاية ذاته ، أحس ان الصدع الذي كان يحمله في نفسه يتقضبض ويفتحة على نحو أكثر رحابة على القلق والحمى . ونهض فجأة ، ونادى النادل ، ولم يفهم شيئاً من شروحه ، ودفع بسخاء وهو يلاحظ من جديد نظرة الموسيقي المنفتحة والمحدقة ابداً فيه . وبلغ الباب . وتجاوز الرجل فلاحظ انه كان ما يزال يتأمل الطاولة التي كان قد غادرها . وادرك آنذاك انه قد كان اعمى ، وارتقى الدرجات ، واذا فتح الباب ، ووجد نفسه كله ملقى في الرائحة الحامزة ابداً ، تقدم في الطرقات القصيرة نحو اعماق الليل .

كانت النجوم تتألق فوق المنازل . لا بد أنه كان بالقرب من النهر الذي كان يسمع خريره الاصم القوي . وامام شبكة في حائط ، سميك مملوء بحروف عبرية ، أدرك انه كان في الحي اليهودي . فوق الحائط كانت اغصان صفصاف ذات رائحة مسكرة تتساقط من جديد . ومن خلال الشبكة ، كان المرء يلاحظ أشجاراً ضخمة سمراء مدفونة بين الاعشاب . كانت تلك مقبرة براغ اليهودية القديمة ، وعلى بعد خطوات من هنا ، وجد مرسو نفسه من جديد ، راكضاً ، من الساحة القديمة لدار البلدية . وامام فندقه ، اضطر الى ان يستند الى حائط ، وتقيأ بجهد . وبكل الوضوح الذي يمنحه الضعف الأقصى وجد غرفته بلا ادنى خطأ ، فاستلقى ، ومرعان ما نام .

وفي اليوم التالي استيقظ على صراخ بائعي الصحف . كان الجو ما يزال ثقيلاً ، ولكن كان بالامكان التنبؤ بالشمس وراء الغيوم . وكان مرسو ، بالرغم من ضعفه الخفيف ، يحس بالتحسن . ولكنه كان يفكر بطول اليوم الذي يتقدم . ان يعيش هكذا بحضور ذاته ، معناه ان يتخذ الوقت امتداده الأقصى ، فتبدو

له كل ساعة من ساعات النهار وكأنها تضم عالماً . قبل كل شيء ، عليه ان يتجنب ازمات كالتي حدثت البارحة . ومن الافضل ان يزور المدينة بانتظام . جلس على طاولته ، بنامته ، ووضع لنفسه برنامج عمل منظم يشغل كل يوم من أيامه لمدة اسبوع . ولم ينس شيئاً . الدير والكنائس الباروكية ، المتاحف والاحياء القديمة . ثم أصلح هندامه ، ولاحظ اذ ذاك انه كان قد نسي ان يشتري مشطاً فنزل ، كالبارحة ، مشعناً وصامتاً امام البواب الذي لاحظ في وضع النهار شعره المقنذ ، وهيئته المذهولة وسرته التي كان ينقصها الزر الثاني . وعند خروجه من الفندق ، تأثر بلحن أكورديون طفولي وحنون . كان اعمى البارحة ، في زاوية الجادة القديمة ، مقرصاً على كعبيه ، يحرك آلتة بالتمبير نفسه ، الفارغ المبتسم كأنما هو محرر ، من ذاته ، ومنصور كله في حركة حياة كانت تتجاوزه . وعند زاوية الشارع ، التفت مرسو ووجد رائحة الخيار ، ومعها ، قلقة .

كان هذا اليوم ما كان ينبغي ان تكونه الأيام التي تلتها . كان مرسو يستيقظ متأخراً ، فيزور أديرة وكنائس ، وكان يبحث عن ملاذ في رائحتها القوية والبخورية ، لكنه وحين يعود الى النهار ، يلتقي خوفه الخفي مسح بائعي الخيار الذين كانوا منتشرين في جميع زوايا الشارع . ومن خلال هذه الرائحة كان يرى المتاحف ويفهم غزارة وسر العبقرية الباروكية التي كانت تملأ براغ بذهبها وعظمتها : وكانت الاشعة المذهبة التي كانت تلمع برفق على المذابح في جوف الظل تبدو له مأخوذة من السماء النحاسية المكونة من ضباب وشمس المرتفعة غالباً فوق براغ . وكانت خردوات الحازونيات والدويرات ، والديكور المعقد الذي يمكن ان نقول إنه من الورق المذهب ، كان مثيراً في شبه بمذاود الطفل التي تقام في الميلاد ، وكان مرسو يحس في ذلك الضخامة والقرابة والتناسق الباروكي ، كأنه رومانية ، محمولة ، طفولية ووطنانية يدافع بها

الانسان عن نفسه ضد شياطينه الخاصة . والاله الذي كان يُعبد هنا ، هو
الاله الذي يخشى ويبجل ، لا الاله الذي يضحك مع الانسان امام الاعيب البحر
والشمس الودّية . وحين خرج مرسو من رائحة الغبار والعدم التي كانت تخيم
تحت القبب المعتمة ، كان يجد نفسه بلا وطن . وفي كل مساء ، كان يذهب الى
اديرة النساك التشيكيين ، في غرب المدينة ، وفي حديقة الدير كانت الساعات تتطايّر
مع الحمام . وكانت الأجراس تقرع بعذوبة على العشب . ولكن كانت حَمَاه
هي التي تتحدث ايضاً اليه . على ان الوقت كان يمر كذلك . ولكن تلك كانت
الساعة التي كانت فيها الكنائس والآثار مغلقة والمطاعم غير مفتوحة
بعد . وهنا كان الخطر . كان مرسو يتنزه على ضفاف فلتافا المليئة بالحدائق
والجوقات الموسيقية في النهار المنتهي . وكانت مراكب صغيرة تصعد من جديد
النهر من سد الى آخر . وكان مرسو يصعد معها ، وكان يترك الضجيج المصم
وغليان هويس القناة ، ويستعيد شيئاً فشيئاً سلام المساء وسكونه ، ثم يمشي
من جديد لملاقاة هدير كان يتضخم حتى الضجيج . وحين وصل الى السد
الجديد ، ظل ينظر الى القوارب الصغيرة الملونة وهي تحاول عبثاً ان تجتاز
السد من غير ان تنقلب ، حتى تمكن احدها من ان يجتاز النقطة الخطرة ، فعلا
الصياح على صوت المياه . وكان هذا الماء المندفع والمشحون بالأصوات والانغام
وروائع الحدائق ، المليء بالأضواء النحاسية لسماء الغيب وبالظلال الملتوية
والمتنافرة لتأثيل جسر شارل ، كان هذا الماء يحمل لمرسو الوعي المؤلم الحاد
لوحدة بلا حماسة لم يكن للحب بعد اي مكان فيها . وحين توقف امام عطر المياه
والاوراق الذي كان يتصاعد اليه ، منقبض الحلق ، كان يتخيل دموعاً لم
تكن لتأتي . وكان يكفيه مجرد صديق او ذراعان مفتوحتان . ولكن
الدموع كانت تتوقف عند حدود عالم بلا خنو ، كان غارقاً فيه . وفي مرات
أخرى حين كان يجتاز جسر شارل ، في هذه الساعة من المساء ايضاً ، كان

يتنزه في حي هردستين ، فوق النهر ، المقفر الصامت على بضعة خطوات من أكثر أحياء المدينة ازدحاماً . كان يتيه بين هذه القصور الفخمة ، ومحاذي المتنزهات الواسعة المشجرة ، المبلطة على طول الحواجز المنحوتة حول الكاتدرائية . وبين جدران القصور العالية كانت اقدامه تصدي في السكون . وكان صوت أصم يتصاعد من المدينة اليه . ولم يكن هناك بائع خیار في هذا الحي ، ولكنه أحس بشيء مقبض في هذا الصمت وهذه العظمة ، حتى ان مرسو كان ينتهي دائماً بأن يعود فيهبط نحو الرائحة او النعم اللذين كانا يكونان من الآن فصاعداً كل وطنه . كان يأكل في المطعم الذي كان قد اكتشفه والذي ظلّ ، بالنسبة له على الأقل ، مألوفاً . وكان مكانه أمام الرجل ذي النجمة الحمراء والذي كان يأتي فقط مساء . فشرب كأس جمعة . وعلك كبريته . وعند العشاء ، ايضاً ، كان الأعمى يعزف ، وكان مرسو يأكل بسرعة ويدفع ويعود الى فندقه نحو نوم طفل محموم لم يفته ليلة واحدة .

كل يوم كان مرسو يفكر في الذهاب ، وكل يوم كان يزداد غوصاً في التخلي ، فتضعف ارادته للسعادة في ان تقوده . لقد مضى عليه أربعة أيام في براغ لم يكن قد اشترى فيها بعد المشط الذي كان يحس غيابيه كل صباح . على انه كان لديه الشعور المبهم بنقص ما ، وهذا ما كان ينتظره بغموض . وذات مساء ، كان يتوجه نحو مطعمه في الطريق الصغيرة حيث التقى بالرائحة في المساء الأول . والحق انه كان قد بدأ يحسها قادمة عندما أوقفه شيء ما ، قبل المطعم بقليل ، على الرصيف المقابل وجعله يقترب . كان ثمة رجل ممدد على الرصيف مشتبك الذراعين ورأسه مائل على خده اليسر . وكان ثلاثة اشخاص او أربعة يستندون الى حائط كما لو انهم ينتظرون شيئاً ما ، على هدوئهم الكبير . وكان أحدهم يدخن . وكان الآخرون يتحدثون بصوت خافت . ولكن رجلاً مشتمراً الاكهام ، وسارقه على ذارعه ، ولبيدته مرتدة الى الخلف ، يوميء حول الجسد رقصة وحشية ، نوعاً من رقصة هندية

موقّعة ومرهقة . وفوق ، كان نور مصباح بعيد خافت جداً يتألف مع الضوء الأصم الذي كان ينبعث من المقهى على بعد خطوات . هذا الرجل الراقص بلا توقف ، وهذا الجسد ذو الذراعين المتشابكتين ، وهؤلاء المتفرجون الهادئون الى هذا الحد ، وهذا التناقض المضحك ، وهذا الصمت الجديد ، كان في ذلك كله لحظة توازن مضى مكوّنة اخيراً من التأمل والبراءة بين الاعيب الظل والضوء المطبقة قليلاً ، هذه اللحظة التي كان يبدو لمرسو ان كل شيء فيها يهوي في الجنون . وازداد قريباً . كان رأس القتل يسبح في الدم . وعلى الجرح ، كان الرأس قد انحنى ، وكان الآن يستكين في هذه الزاوية البعيدة من براغ ، بين الاشعة النادرة على البلاط الدهني ، والانزلاقات الطويلة المبتلة للسيارات التي كانت تمر على بعد خطوات من هنا ، والعودة المتباعدة النائية للحافلات الصاخبة المتباعدة . في هذه الزاوية ، كان الموت يتكشف عذبا وملحاً . وكان نداؤه بالذات ونفحه الرطب هو ما كان يحسه مرسو في اللحظة التي مضى فيها بخطى كبيرة من غير ان يلوي . وفجأة ، قدمت الرائحة لتبهزه ، وكان قد نسيها ، فدخل الى المطعم وجلس على طاولته . كان الرجل هنا ، ولكن من دون كبريته . وخيل لمرسو انه كان يرى شيئاً من الشرود في نظراته . وطرد الفكرة السخيفة ، التي كانت تمثل له . ولكن كل شيء كان يدور في رأسه . وقبل ان يطلب أي شيء ، هرب فجأة ، وركض حتى فندقه وارتمى على سريره . كانت لذعة حارّة تحرق صدغه . كان فارغ القلب منقبض البطن وكان تمرده ينفجر . وكانت صور من حياته تضخم عينيّه . شيء ما في داخله كان يزعق وراء حركات نساء وأذرع تتفتح وشفاه دافئة . ومن اعماق ليالي براغ المؤلمة ، وسط روائح الخل والانغام الطفولية ، كان يتصاعد اليه الوجه القلق للعالم الباروكي القديم الذي كان قد صاحب حمّاه . وجلس على سريره ، وهو يتنفس بجهد ، ويعيون اعمى وحركات

آلة . وكان درج المنضدة مفتوحاً ومكسواً بصحيفة انكليزية قرأ فيها مقالاً كاملاً . ثم عاد فارغى على سريره . كان رأس الرجل منحنيّاً على الجرح ، وفي هذا الجرح كان بالامكان دسّ أصابع . نظر الى يديه والى أصابعه ، فانبعثت من قلبه رغبات طفل . وكانت حماسة حادة وخفية تتفاقم فيه مع الدموع ، فاذا هو حنين الى مدن مليئة بالشمس والنساء مع امسيات خضراء تضمّد الجروح . وانفجرت الدموع . وفي نفسه ، كانت بحيرة كبيرة من الوحدة والصمت تتسع ، وعليها كان يركض لحن خلاصه الحزين .

الفصل الثاني

في القطار الذي كان يقوده نحو الشمال ، كان مرسو يتأمل يديه . كانت السماء تنبئ بمعاصفة كان جري الترام يثير فيها موجة من الغيوم المنخفضة الثقيلة . وكان مرسو وحده في هذه الحافلة المفرطة السخونة . كان قد ذهب مسرعاً في الليل ، وإذ أصبح الآن وحيداً أمام الصبيحة القاتمة ، كان يترك لكل عذوبة هذا المنظر البوهيمي ان تتسلل إلى نفسه ، حيث كان انتظار المطربين الصفصافات الحمرية العالية ومداخن المعامل البعيدة يخلف ما يشبه الرغبة في الدموع . وكان ينظر إلى اللافتة البيضاء بمباراتها الثلاث : « من الخطر الإنحناء إلى الخارج » . ومن هنا ، كانت يدها ، أشبه بجوانين وحشين نابضين على ركبتيه ، تناديان نظراته . احدهما ، اليسرى ، كانت طويلة لدنة ، والأخرى كثيرة العقد وعاضلة . كان يعرفها ، وكان يتعرف اليها ثانية ، وفي الوقت نفسه كان يشعر بها متمايزتين ، كأنما هما جديرتان بأعمال لم يكن لارادته أي شأن فيها . وقد أقبلت احدهما تستند إلى جبينه لتقيم حاجزاً للحصى التي كانت تطرق صدغيه . وانزلت الأخرى على طول سترته وانسلت إلى جيبه لتأخذ لفافة ، ولكنها ما لبثت ان أرتدت إذ وعى هذه الرغبة في التقيؤ التي كانت تخلفه واهناً بلا قوة . وإذ عاد إلى ركبتيه ، أسلمت يدها ، وأتخذت راحتها شكل كأس . فقدّمها لمرسو وجه حياته وقد أرتدت إلى اللامبالاة ووهبت نفسها لكل من كان يريد أخذها .

وسافر لمدة يومين . ولكنه في هذه المرة . لم تكن غريزة الهرب هي التي تدفعه . كانت رتابة هذا السباق نفسها تغمره . وكانت هذه الحافلة التي تقوده

خلال نصف أوروبا تتركه بين عالمين . لقد أستقلتها وهو على وشك ان يفادرها . كانت تسجنه خارج حياة كان يريد ان يحو حق ذكرها لكي تقوده إلى عتبة عالم جديد تصبح فيه الرغبة ملكة . ولم يضجر مرسو مرة واحدة . كان يقبع في زاويته ، يكاد لا يُزعجه شيء . وكان ينظر إلى يديه ، ثم إلى المنظر ، ويفكر . وراق له ان يمدد رحلته حتى برساو ، لا يقوم إلا يجهد يسير عند الجمر ليبدل التذكرة . كان يريد ان يستمر بعد في مواجهة حريته . كان تعباً ، ولم يكن يحس في نفسه القدرة على التحرك . كان يتلقى في ذاته أصغر أجزاء قوته وادق آماله ، وكان يشدها ويميد جمعها ، وفي ذاته كان يعيد صنع ذاته ، ويصنع مصيره الآتي في آن واحد . كان يحب هذه الليالي الطويلة التي ينسحب فيها القطار على السكك الزلقة ، ومروره العاصف في المحطات الصغيرة حيث الساعة وحدها مضيئة ، وانكباحه المفاجيء قبل أضواء المحطات الكبيرة هذا الوكر الذي ما يكاد يلاحظ حتى يكون قد بدأ يبتلع القطار ويصب في حافلاته ذهبه الوافر وضوءه وحرارته . وكانت مطرقات ترن على الدواليب ، وكانت القاطرة تمحجم بكل بخارها ، وكانت حركة العامل الآلية ، وهو يخفض قرص المرور الأحمر ، تقذف مرسو في السباق المجنون للترام حيث كان صحوه وقلقه وحدهما يسهران . ومن جديد كان تلاعب الظلال والأضواء المتشابه في الحافلة ، وغطاء السواد والذهب . درسد ، بوتزن ، غرليتز ، ليفنتز ، وكان طوال الليل وحيداً بمواجهة ذاته ، مالمكا كل وقته ليشكل حركات حياة قادمة ، وكان الصراع الصبور مع الفكرة التي تهرب عند منعطف محطة ، ثم تستسلم فيقبض عليها وتطارده ، وتلتحق بمحصلاتها ثم تهرب ثانية أمام رقص الأسلاك الملتمة بالمطر والأضواء . كان مرسو يبحث عن الكلمة أو الجملة التي ستعبر عن أمل قلبه والتي سينتهي فيها قلقه . وفي حالة الضعف التي كان يعانيها ، كان بحاجة إلى صيغ . وكان الليل والنهار ينقضيان في هذا الصراع العنيد مع الفعل والصورة اللذين سيحددان بعد الآن لون نظرتة كله أمام الحياة ، والحلم المجنون

أو الشقي الذي يكونه عن مستقبله . كان يغمض عينيه . إن المرء بحاجة إلى وقت لكي يعيش ، وككل عمل فني ، تتطلب الحياة من المرء ان يفكر بها . وكان مرسو يفكر بحياته وينزه وعيه المضطرب وارادته للسعادة في حافلة كانت في تلك الأيام ، بالنسبة له في اوروبا ، شبيهة بأحدى تلك الحجرات التي يتعلم فيها الانسان ان يعرف الانسان عبْرَ ما يتجاوزه .

وفي صباح اليوم التالي ، وبالرغم من البلد المنبسط ، فان القطار يتباطأ بشكل ملحوظ . كان على بعد ساعات من برساو ، وكان النهار يتفتح على سهل سيليزي الطويل ، حيث لا شجرة ، اللزج من الوحل ، تحت سماء يغطيها ويملاها المطر . وعلى مد البصر وعلى مسافات منتظمة ، كانت طيور كبيرة سوداء ذات أجنحة براقّة تطير أمراباً على ارتفاع أمتار من الأرض ، عاجزة عن الارتفاع أعلى من ذلك تحت السماء الثقيلة كالبلاطة . كانت تحوم دوائر في طيران بطيء وثقيل ، وأحياناً كان احدها يخرج عن السرب ، فيلامس الأرض ، حتى ليختلط بها ، ويبتعد بالطيران اللزج نفسه إلى ما لا نهاية حتى يبتعد مسافة كافية البعد لكي ينفصل كنقطة سوداء في السماء المبتدئة .

وكان مرسو قد مسح بيديه بخار الزجاج ، وكان ينظر بشغف ، من خلال الخطوط الطويلة التي كانت أصابعه قد تركتها على الزجاج . ومن الأرض الكدرة حتى السماء الفاقدة اللون ، كانت ترتفع في نفسه صورة لعالم جاحد كان ، لأول مرة ، يعود أخيراً إلى ذاته . وعلى هذه الأرض المعادة إلى يأس البراءة ، كان مسافراً تائهاً في عالم بدائي ، يستعيد روابطه ، ويقبضة مشدودة إلى صدره ، ووجهه مسحوق على الزجاج ، كان يمثل أندفاعه نحو ذاته ونحو اليقين بالعظمة التي كانت تنام في نفسه . كان يود لو ينسحق في هذا الوحل ، ويغوص في الأرض بهذا الحمام من الصلصال وينتصب على السهل الذي لا حدود له ، معطى بالوحل مشرع اليدين امام سماء الاسفنج والشحم ، كأنما هو في وجه رمز الحياة المونس

الرائع ، يؤكد تضامنه مع العالم في أشد صوره تنغيماً ، ويعلن عن نفسه شريكاً للحياة حتى في جحودها وقذارتها . وأخيراً انفجر الاندفاع الهائل الذي كان يستبدّ به لأول مرة منذ رحيله . وسحق مرسو دموعه وشفتيه بالزجاج البارد . ومن جديد ، تقبّش الزجاج وأختفى السهل .

بعد ساعات ، كان يصل إلى برسلو . ومن بعيد بدت له المدينة كغابة من مداخن المعامل وقبب الكندرايات . ومن قريب ، كانت مبنية من القرميسد والاحجار السوداء . وكان رجال الخوذات ذات المقدمات القصيرة يسرون على مهل . وقد تبعهم ، وأمضى الصبيحة في مقهى عمالي ، كان شاب يعزف فيه على الهرمونيكا : الحاناً ذات بلادة قوية وثقيلة تريح النفس . وقرر مرسو ان يعود فيهبط نحو الجنوب ، بعد ان يكون قد اشترى مشطاً . وفي اليوم التالي ، كان في فيينا ، فنام قسماً من النهار والليل بأكمله . وعندما أستيقظ ، كانت الحمى قد سقطت كلياً . وأتخم نفسه بالبيض برشت والقشدة الطازجة عند الفطور ، ثم خرج وقلبه مُعَفَّر بعض الشيء ، في صبيحة تحترقها الشمس والمطر .

كانت فيينا مدينة منعشة . ولم يكن فيها شيء يُزار . كانت كاتدرائية القديس اتيان المفرطة الضخامة تضجّره . وقد فضلّ عليها المقاهي التي كانت تواجهها ، وفي المساء ، مرقصاً صغيراً امام ضفاف القتال . وفي النهار كانت ينتزه على طول « الرنغ » ، وسط ترف الواجبات الجميلة والنساء الانبيقات : كان يتمتع ، رداً من الزمن ، بهذا الديكور الخفيف المترف الذي يفصل الانسان عن ذاته في مدينة هي أقلّ المدن طبعيةً في العالم . ولكن النساء كن جميلات ، وكانت الأزهار نامية باهرة في الحدائق ، وعلى « الرنغ » ، في المساء الهابط ، بين الجمع المتألق الرخي الذي كان ينتزه ، كان مرسو يتأمل ، على قمة الانصاب ، الانطلاق العبثي للخيول الحجرية في المساء الأحمر . نذاك فقط تذكر روز وكليز ، صاحبتيه . ولأول مرة منذ رحيله ، كتب رسالة . والحقيقة ان

فيض صمته هو ما كان ينسكب على الورق .

« صغيرتي » :

أكتب اليكما من فيينا . لا أدري ما ألتما اليه . أما أنا ، فإنني أكسب حياتي بالسفر . رأيت بمرارة قلب كثيراً من الأشياء الجميلة . هنا ، اخلى الجمال المكان للحضارة . وهذا مريح . انفي لا أزور كنائس ولا امكنة اثرية . انني اتنزه على « الرنغ » . وحين يأتي المساء فوق المسارح والقصور الباذخة ، يلقي انطلاق الخيول الحجرية الاعمى عند المغيب الأحمر في نفسي مزيجاً فريداً من المرارة والسعادة . في الصباح أفطر بيضاً برشت وقشدة طازجة . أنهض متأخراً ، والفندق يحيطني بجمالاته ، انني متأثر لأسلوب رؤساء خدم الفندق ومتخم بالطعام اللذيذ (أوه ما اطيب هذه القشدة الطازجة !) . يوجد هنا مناظر جميلة ونساء جيلات . ولا تنقصني إلا شمس حقيقية .

ما الذي تفعلانه ؟ تحدثا عنكما وعن الشمس الى المسكين الذي لا يمسه شيء في أي مكان والذي يظل صديقكما المخلص : باتريس مرسو .

ذلك المساء ، حين انتهى من الكتابة ، عاد الى المرقص . كان قد حجز لنفسه السهرة مع إحدى الساقيات ، هيلين ، التي كانت تعرف بعض الفرنسية وتفهم ألمانيته الرديئة . وحين خرج من المرقص في الثانية صباحاً ، أعادها الى منزلها ، وفعل الحب كأحسن ما يفعل في العالم ، ووجد نفسه في الصباح ، عارياً ، في سرير غريب ، ملتصقاً بظهر هيلين التي كان يتأمل بلا مبالاة وابتهاج ردفها الطويلين وكتفها العريضتين . وذهب من غير ان يريد إيقافها ، ودس ورقة في احد حذائيه . وفي اللحظة التي بلغ فيها الباب سمع من يناديه : « ولكنك يا حبيبي قد اخطأت » . فعاد نحو السرير : كان قد اخطأ بالفعل ، فقد كان يحبل العملة النمساوية ، لذلك فقد ترك ورقة بخمسة شلنغ بدلاً من مئة . قال وهو يتسم : « لا . إنها لك . لقد كنت لطيفة جداً » . والتمع وجه هيلين ، المنقط

بالنمش تحت الشعر الاشقر والمشعث ، بابتسامة . وفجأة انتصبت واقفسة على السرير وقبلته على الحدين . وفجرت هذه القبة ، الاولى بلاشك التي أعطته اياها من كل قلبها ، فجرت في مرسو دفعة من التأثر . فألقاها على السرير وغطاها ، ثم رجع الى الباب ونظر اليها وهو يبتسم . قال : « وداعاً » . وجحظت الاخرى بعينها فوق الغطاء المرفوع تحت الانف وتركته يختفى من غير ان تجد كلمة .

وبعد أيام تلقى مرسو جواباً مؤرخاً من مدينة الجزائر :

«عزيزنا باتريس .

نحن في مدينة الجزائر . ستكون صغيرناك سعيدتين جداً لرؤيتك من جديد . فاذا لم يكن ثمة ما يسكنك في أي مكان ، فتعال الى الجزائر . اننا نستطيع ان ننزلك في « البيت » . اما نحن ، فسعيدتان : اننا طبعاً نشكو بعض الحجل ، ولكن ذلك بالأحرى بسبب اللياقة . وان لذلك ايضاً علاقة بالاحكام المسبقة . اذا كنت مهتماً بان تكون سعيداً ، فتعال جرب ذلك هنا . فهذا أفضل من ان تكون ضابط - صف مجدد التطوع . نقدم جبهتنا لقبلاتك الأبوية .

روز ، كلير ، كاترين .

ملاحظة - تحتج كاترين على كلمة « أبوي » كاترين تسكن معنا ، وستكون ، إن اردت ذلك ، صغيرتك الثالثة .

وقرر أن يعود الى مدينة الجزائر عن طريق جنوى . وكما يحتاج آخرون الى عزلة قبل ان يتخذوا قراراتهم الخطيرة ويلعبوا اللعبة الاساسية لحياة ما ، فقد كان هو ، المسم بالوحدة والغربة ، بحاجة الى ان يحتمي بالصدقة والثقة وان يتذوق اماناً ظاهراً قبل ان يبدأ لعبته .

وفي القطار الذي كان يقله الى جنوى عن طريق ايطاليا الشمالية ، كان ينصت الى آلاف الاصوات التي كانت تغني فيه نحو السعادة . وعند أول

شجرة شربين منتصبه على الأرض الطاهرة ، كان قد ارتخى . كان ما يزال يحس ضعفه وحمّاه . ولكن شيئاً ما في نفسه كان قد استرخى وتمدد . وفيما بعد ، بقدر ما كانت الشمس تتقدم في النهار ويقترّب البحر ، تحت السماء الكبيرة المتوهجة المتحفزة حيث تسيل على شجرات الزيتون المرتعشة انهار من الهواء والضوء ، كان الهوس الذي يحرك العالم يتجاوب مع حماس قلبه . وكان صوت القطار والثروة الطفولية التي كانت تحيط به في المقصورة المكتظة ، وكل ما كان يضحك ويغني حوله ، يتناغم ويصاحب نوعاً من الرقص الداخلي ألقاه ، لمدة ساعات ، جامداً في أربعة أرجاء المعمورة ثم صبه أخيراً مبتهجاً منذهلاً في جنوى المصمة التي كانت تتفجر صيحة أمام خليجها وسمائها ، حيث كانت اللذة والكسل يتصارعان حق المساء . كان متعطشاً للحب والمتعة والتقبيل . وقد ألقته الآلهة التي كانت تحرقه ، في البحر ، في زاوية صغيرة من المرفأ ، حيث تذوق القطران والملح ممزوجين ، وأضاع أقصى مداه لفرط ما سبح . وتاه فيما بعد في الطرقات الضيقة المليئة بروائح الاحياء القديمة ، وترك الألوان تزار من أجله ، والسماء تستنفد نفسها فوق البيوت تحت وطأة شمسها ، والقطط ترتاح بين القذارات والصيف . ومضى الى الطريق التي تشرف على جنوى ، وترك البحر كله المحمل بالعطر والأضواء يصعد اليه ، في انتفاخ طويل . وكان يحضن الحجر الساخن الذي كان قد جلس عليه ، وهو يغمض عينيه ، ليفتحهما على هذه المدينة التي كان زخم الحياة فيها يزجر بسدوق رديء مهيج . وفي الأيام التي تلت ، كان يحب ايضاً ان يجلس على الحاجز الذي ينحدر نحو المرفأ ، وعند الظهر كان ينظر الى الفتيات الصبيات يمررن عائدات من المكاتب الى المرفأ . كانت الفتيات ينتعلن الصنادل ، محرّرات النهود في اثواب زاهية خفيفة ، فكنّ يتركن مرسو جاف اللسان خافق القلب برغبة كان يجد فيها في آن واحد حرية وقبريراً . وفي المساء ، كانت النساء أنفسهن ، هن اللواتي كان يلتقي بهن في الطرقات ، فيتبعهن يرافقه في أحشائه الوحش الحار

الملتهف بالرغبة الذي كان يتحرك بعذوبة ضارية . وخلال يومين ، تحرق في هذه الحمى اللاإنسانية . وفي اليوم الثالث غادر جنوى الى مدينة الجزائر .

وطوال الرحلة ، كان يتأمل الاعيب الماء والضوء ، في الصباح ، وفي قلب النهار وفي المساء على البحر ، فيؤلف قلبه مع دقائق السماء البطيئة ويعود الى ذاته . كان يحذر من ابتذالية بعض الشفاءات . وحين كان يتمدد على الجسر ، كان يدرك انه لم يكن له ان ينام بل ان يسهر ، ان يسهر ضد الاصدقاء ، وضد رفاهية النفس والجسد . ولقد كان عليه ان يبني سعادته وتبريره . وستكون المهمة الآن بالنسبة له أيسر بلا شك . وحيال السلام الغريب الذي كان ينفذ اليه امام المساء الذي يندو فجأة اكثر رطوبة على البحر ، والنجمة الأولى التي تقسو ببطء في السماء حيث كانت الاشعة تموت خضراء . لتحيا من جديد صفراء ، حيال ذلك كله ، كان يحس بعد هذا الصخب الكبير وهذه العاصفة ان ما كان في نفسه غامض ورديء يرسب ليقى من بعده الماء الصافي الشفاف لنفس تعود الى الطيبة والعزم كان يرى بوضوح . وكان قد أمّل طويلاً بحب امرأة . على انه لم يكن قد صنع من اجل الحب . فخلال حياته ، في مكتب الرفأ ، وغرفة نومه ، ومطعمه وعشيقته ، كان قد لاحق ، يبحث فريد ، سعادة كان في اعماق ذاته ، وكجميع الناس ، يعتقدوها مستحيلة . كان قد لعب لعبة إرادة ان يكون سعيداً . ابداً لم يكن قد أرادها بتصميم واع محرر . ابداً وحتى الآن . وابتداء من هذه اللحظة ، وبسبب حركة واحدة محسوبة بكل وعي ، كانت حياته قد تغيرت ، وكانت السعادة ممكنة . كان بلا شك قد ولد في الآلام هذا الكائن الجديد . ولكن اية قيمة كانت له اذا قيس بالمهزلة المهينة التي كان يلعبها فيما مضى . كان يرى مثلاً ، ان ما كان قد شده الى مارت ، كان الثرور اكثر مما كان الحب ، بما في ذلك معجزة الشفتين اللتين كانت تمدها له ، تلك المعجزة التي لم تكن سوى الدهشة الفرحة لقدرة كانت تتعرف على ذاتها وتفتح على الانتصار . وكل تاريخ حبه كان في الحقيقة استبدال هذه

الدهشة الأولية ييقين ، وتواضعه بغيرور . كان قد أحب فيها هذه الأمسيات التي كانا يظهران فيها في دور السينما والتي كانت الانظار تتجه فيها نحوها ، وتلك اللحظة التي كان يقدّمها فيها الى العالم . كان يحب فيها ذاته وقدرته وطموحه لأن يحيا . ولعل لذته نفسها ومذاق جسده كله العميق ربما كان صادراً من هذه الدهشة الأولى لامتلاك جسد جميل جمالاً فريداً ، والسيطرة عليه واذلاله . والآن كان يدرك انه لم يكن مصنوعاً لهذا الحب ، بل للحب البريء الغنيّف لإله اسود سيتعبده بعد الآن .

وكما يحدث غالباً ، كان احسن ما في حياته قد تركّز حول أسوأ ما قد كان فيها : كثير وصديقاتها، وزغرو وإرادته للسعادة حول مارت. وكان يدرك الآن ان على ارادته للسعادة ان تتقدم . ولكن لأجل ذلك كان يدرك ان عليه ان يتوافق مع الزمن، وان امتلاك الوقت كان في آن واحد اجمال التجارب ، وخطرها، والبطالة ليست شؤماً الا على الاردياء. بل ان كثيرين لا يستطيعون ان يشبتوا انهم غير أردياء . وكان هو قد امتلك هذا الحق . ولكن كان ما يزال يفتقر الى اقامة الدليل . شيء واحد كان قد تغير . كان يحس نفسه حراً تجاه ماضيه ، وتجاه ما كان قد فقده . لم يكن يريد إلا هذا الحصر وهذا الحيز المفلق في ذاته ، وهذه الحميا الراحية الصبور أمام العالم .

كان يود فقط ان يضم حياته بين يديه ، كما يضغط خبز حاراً ويُنهك ، او كما فعل في ليلتي القطار الطويلتين اللتين كان يستطيع ان يتحدث فيهما مع نفسه وينتهي للحياة . كان يود ان يلحس حياته كقطعة حلوى ، ان يكوّنّها ، ان يشحذها واخيراً ان يحبها . هنا ، كان يكمن كل هواء . وحضور ذاته هذا لذاته كان جهده بعد الان مبذولاً لكي يبقيه امام جميع وجوه حياته ، حتى مقابل وحدة كان يدرك الان كم هو صعب احتلالها . إنه لن يخون أبداً . فعنفه كلك كان يساعده في ذلك ، والنقطة التي كان يحمله اليها ، كان حبّه يلتقي عندها كشهوة جائعة للحياة .

كان البحر يتكسر بهدوء على جوانب المركب. وكانت السماء تمتليء بالنجوم ، وكان مرسو صامتاً يحس في نفسه قوى فائقة عميقة ليحب هذه الحياة ويعجب بها ، هذه الحياة ذات الوجه المصنوع من الدموع والشمس ، هذه الحياة في الملح والحجر الحار ، وكان يخيّل له ان جميع قوى الحب واليأس لديه ستتضافر لكي تداعبها. وهنا كان يكمن فقره وغناه الفريد . كان ذلك كما لو أنه ، انطلاقاً من الصفر ، كان يستأنف اللعبة ، ولكن مع وعيه لقواء وللحمى الواعية التي كانت تضغط عليه في وجه مصيره .

وبعد ذلك كانت مدينة الجزائر ، والوصول البطيء عند الصباح ، وشلال القصبة الباهر فوق البحر ، والتلال والسماء ، والجون بذراعيه المبسوطتين ، والبيوت بين الاشجار ورائحة المرافيء التي بدأت تقترب. وإذ ذاك لاحظ مرسو أنه ، منذ فيينا ، لم يكن قد فكر مرة واحدة بزغرو على أنه الرجل الذي كان قد قتله بيديه . وعرف في نفسه ملكة النسيان ، تلك التي لا يمتلكها إلا الطفل ، والمبقرى والبريء . وبريثاً ، مبلبلاً بالفرح ، أدرك أخيراً انه كان مخلوقاً للسعادة .

الفصل الثالث

يتناول باتريس وكاترين فطورهما تحت الشمس ، على السطيجة . ترتدي
كاترين ثياب السباحة ، و«الفي» ، كما تدعوه صديقاته ، يرتدي « السليب » ،
وحول عنقه منشفة . إنها يأكلان بندورة مع الملح ، وسلطة البطاطا ، وعسل
وفاكهة بكمية كبيرة ، ويضعان دراقاً ليبرد في الثلج ، وحين يرفعانه ، يلحسان
قطرات العرق عن زغب القشرة المحمل . كما أنها يعدان عصير العنب ويشربانه
وهما يرفعان وجهيهما نحو الشمس من أجل تسميرهما (على الأقل باتريس الذي
كان يعلم ان السمرة في صالحه .)

قال باتريس ، وذراعه ممدودة نحو كاترين :

— استنشقي الشمس .

ولحست الذراع ، وقالت :

— اجل ، استنشقي انت ايضاً .

فاستنشقت ثم تمدد وهو يلامس خاصرته .. اما هي فقد استلقت على بطنها
وأزلت ثيابها حتى كليتها .

— هل أنا فاحشة ؟

قال الفي الذي لم يكن ينظر :

— لا .

وسالت الشمس وتباطأت على وجهها ، كانت مسامه رطبة بشكل طفيف ،
فأخذ يتنفس هذه النار التي كانت تغمره وتنبهه . وخمرت كاترين شمسها
وتأوتت وأنت ، ثم قالت :

— هذا لذيذ .

قال الفتى :

— نعم .

كان البيت معلقاً عند قمة تلة كان الجون يُرى منها . وفي الحي ، كانوا
يسمونه « بيت الطالبات الثلاث » . وكان يصعد اليه بطريق شديد الوعورة
يبدأ في شجرات الزيتون وينتهي بها . وفي وسطه ، كان يشكل نوعاً من
المنبسط ، على طول حائط رمادي مغطى برسوم داعرة واستشهادات سياسية ،
كانت قراءتها تعيد التنفس للمسافر المنهوك . وبعد ذلك ، كانت شجرات
الزيتون أيضاً ، وغسيل السماء الأزرق بين الأغصان ، ورائحة المصطكا على
طول الحقول المحمرة حيث كانت أقمشة بنفسجية صفراء وحمراء تجف . وكان المرء
يصل ، وقد غرق في ضيق شديد من العرق والتنفس ، ويدفع حاجزاً صغيراً
أزرق وهو يتعاشى مخلب الجهنميات ، ويبقى عليه أيضاً ان يتسلق سداً واقفاً
كسبية ، ولكنه مغطى بظلال زرقاء كان بالامكان عندها تخفيف العطش . وكانت
روز وكلير وكاترين والفتى يسمونه « البيت أمام العالم » . كان مشرعاً
بأكمله على الطبيعة ، فكان كسلّة منطاد متديلاً في السماء الباهرة فوق رقص العالم
الملوّن . وابتداء من الجون حتى المنحنى الكامل ، في الاسفل ، كان نوع من الاندفاع
يمزج الاعشاب والشمس ويحمل الصنوبر والشربين والزيتونات المغبرة والاكالبتوس
حتى اقدام البيت . وفي قلب هذه الهبة كانت تزدهر ، وفقاً للفصول ، زهور
النسرين البيضاء ، والميموزا ، وزهور العسل هذه التي كانت تترك عطرها يصعد من
جدران البيت في أمسيات الصيف . كان « البيت أمام العالم » بنفسيله الأبيض

وسقوفه الحمراء، وبابتسامات البحر تحت السماء المشبوبة بلائسية من أول الأفق حتى منتهاه، يشرع عنبياته العريضات على هذا المعرض من الألوان والاضواء. ولكن، في البعيد، كان خط من الجبال العالية البنفسجية يلتقي بالجون عند منحدره الأقصى فيحتوي هذه النشوة في رسمها البعيد. واذ ذلك، لا يمكن لأحد ان يتأفف من الطريق الشاق ومن التعب. كان على المرء كل يوم ان يكتسب فرجه.

ان يعيش الانسان هكذا أمام العالم، وان يحس ثقله وان يرى وجهه يشرق كل يوم ثم يخبو للغد، ويحترق بكل شبابه، فقد كان ذلك يمنح سكان البيت الأربعة وعيا بحضور. كان بالنسبة لهم حكماً وتبريراً. فالعالم، هنا، كان يصبح شخصاً، وكان يُحسب بين أولئك الذين نستمد منهم النصيحة بقبول أكثر، أولئك الذين لم يقتل التوازن عندهم الحب كانوا يتخذونه شاهداً:

كان باتريس يقول في معرض أي حديث: «أنا والعالم، لا نفرّكم»

اما كاترين التي كان العري بالنسبة لها يعني التخلص من الاحكام المسبقة، فقد كانت تفيد من غياب الفقه لتتعمق على السطحية، وتتأمل تبدل الواو السماء. وكانت تقول، على الطاولة، بلهجة من الغرور الحسي:

— كنت عارية أمام العالم.

وكان باتريس يقول باحتقار:

— اجل. ان النساء يفضلن بالطبع افكارهن على أحاسيسهن.

وعندها كانت كاترين تقفز لأنها لم تكن تريد أن تكون مثقفة. وكانت روز وكلير تصرخان معاً:

— اسكتي كاترين، انك على خطأ.

ذلك انه كان من التعارف عليه ان كاترين كانت دائماً على خطأ ، مادامت هي التي كان الجميع يحبها بالطريقة نفسها . لقد كانت تملك جسداً وازناً ومرسوماً ، بلون الخبز المحروق ، وكان لديها الغريزة الحيوانية بكل ما هو أساسي في العالم . ولم يكن أحد أجدر منها بتمييز اللغة العميقة للأشجار والبحر والهواء .

وكانت كليز تقول ، وهي تأكل بلا انقطاع :

— هذه الصغيرة ، هي إحدى قوى الطبيعة .

ثم كان الجميع يذهبون ليتدفأوا بالشمس ويصمتوا . ان الإنسان يعطى من قوة الإنسان . في حين ان العالم يتركها بكرأ . ولقد كانت روز وكليز وكاترين وباتريس ، عند نوافذ بيتهن ، يعيشون في الصور وفي الظاهر ، وكانوا يرتضون هذا النوع في اللعب الذي كانوا يعقدونه في ما بينهم ، وكانوا يضحكون للصدقة كما يضحكون للحنو ، ولكن عندما كانوا يمثلون من جديد أمام رقص الساء والبحر ، كانوا يحدون اللون الحفي لمصيرهم فيتلاقون أخيراً بأعمق ما في ذواتهم . وكانت القطط أحياناً تأتي لتلتحق بأسيادها . كانت « غولا » تتقدم ، « مهانة » باستمرار ، نقطة استفهام سوداء بعينين خضراوين ، نحيفة وناعمة ، مأخوذة فجأة بالجنون ، متخبطة ضد اشباح . وكانت روز تقول :

— « انها مسألة غدد صماء . »

ثم كانت تضحك ، فاتحة نفسها كلها لضحكها ، بشعرها المجدد ، وعينيها المزمومتين المبتهجتين وراء نظارات مستديرة ، حتى تقفز عليها غولا (وهذه خطوة خاصة) . وحين تمر أصابعها التائفة على الوبر اللامع ، تلين روز ، وتسترخي . واذ تصبح قطة ذات عينين ناعمتين ، تهديء الوحش بيدين لطيفتين أخويتين . ذلك ان القطط كانت الباب الذي تخرج منه روز الى العالم ، كما كان العربي

باب كاترين . وكانت كلير تفضل القط الآخر الذي هو « كالي » . كان هادئاً
ساذجاً كوبره الأبيض المتسخ ، وكان يستسلم للتعذيب ، وكانت كلير ذات الوجه
الفلورنسي ، تحس آنذاك بروحها رائعة . كانت صموتاً ومغلقة على ذاتها ،
تتخللها انفجارات مفاجئة ، وكانت تملك شهية جيدة . وكان باتريس يراها
تسمن فيوبخها .

كان يقول :

— انك تبعين فينا القرف : ان كائناتنا جيلا لا يحق له أن يقبح .

ولكن روز كانت تتدخل :

— متى تنتهي من معاكسة هذه الطفلة ؟ كلي يا اخي كلير .

وكان اليوم يدور من الشروق حتى المغيب حول التلال وعلى البحر تحت
الشمس اللطيفة . كانوا يضحكون ، وينكتون ويضعون المشاريع . كل منهم
يبتسم للظاهر ويتظاهر بأنه يخضع لها . وكان باتريس يتنقل من وجه العالم الى
وجوه النساء الشابات الرصينة الباسمة . وكان أحياناً يندهش من هذا الكون
المنبعث حوله : ثقة وصداقة ، شمس وبيوت بيضاء ، ظلال من الفروق لا
تكاد تسمع ، هنا كانت تولد سماعات بكر كان يقيس صداها الدقيق . وكانوا
يقولون فيما بينهم ان « البيت أمام العالم » ليس بيتاً يتسلى فيه المرء ولكن
بيت يكون فيه المرء سعيداً . وكان باتريس يحس ذلك جيداً ، عندما تكون
الوجوه متجهة نحو المساء ، فيفتحون نفوسهم جميعاً ليندخلها ، مع آخر نسمة ،
الاغراء الانساني الخطر في ان لا يشبه المرء شيئاً .

ذهبت كاترين ، هذا اليوم بعد حمام الشمس ، الى المكتب ، فقالت روز
وقد انبثقت فجاء :

— عزيزي باتريس ، لديّ خبر سارّ أعلنه لك .

في الغرفة - السطیحة ، كان الفقی متمدداً بشجاعة علی أریكة ، فی هذا
اليوم ، وبين يديه رواية بوليسية . قال :

- يا عزيزتي روز . انني أصفي إليك .

- ان هذا اليوم هو دورك للطبخ .

قال باتريس من غير ان يتحرك :

- حسناً .

وذهبت روز ، حاملة حقيبتها المدرسية ، التي وضعت فيها بلا تمييز فليفلة
الغداء ومجلد « التاريخ » الجزء الثالث ، المضجر ، لمؤلفه لافيس .

وأخذ باتريس ، الذي كان عليه ان يطبخ فاصوليا ، يتسكع حتى الساعة الحادية
عشرة ، فيتأمل الغرفة الكبيرة بحيطانها المغفرة ، المفروشة بالأرائك والرفوف
والاقنعة الخضراء والصفراء والحمراء ، وبالطنافس الحريرية ذات التخطيطات
البرتقالية ، ثم غلى العدس بمفرده ، ووضع الزيت في القدر ، وبصلة للتطرية
وبندورة وإريانا محشواً ، وانهمك وهو يلعن غولا وكالي اللذين كانا يحتجان
من فرط الجوع ، بالرغم من ان روز قد شرحت لهما البارحة قائلة :

- يجب ان تعلمي ، ايها القطان ، ان الجو في الصيف هو أشد حرارة من ان
يشعر فيه أحد بالجوع .

قبل الظهر بربع ساعة ، وصلت كاترين ، مرتدية فستاناً خفيفاً وصندلاً
مكشوفاً . وكانت بحاجة الى حمام بارد وحمام شمسي ، ولهذا فستكون آخر من
يجلس الى المائدة ، وستقول روز بقسوة .

- انك غير محتملة ، كاترين .

والماء يصفر في الحمام ؟ وما هي كلير تقول لاهثة :

- هل تطبخ عدساً ؟ إن لدي وصفة جيدة جداً .

- انني اعرف . آخذ زبدة طازجة .. إنك تكررين كلامك يا عزيزتي
كلير .

والواقع ان جميع وصفات كلير تبدأ دائماً بالزبدة الطازجة .

قالت روز القادمة لتوها :

- انه على حق .

قال الفتى :

- نعم .. لنجلس الى الطاولة .

أكلوا في مطبخ هو في الوقت نفسه مخزن للوازم . وكان فيه كل شيء حتى
مفكرة لتسجيل نكات روز . قالت كلير :

- لنكن لائقين ، ولكن بسطاء .

وأكلت سجقها بأصابعها . ووصلت كاترين بتأخير ملائم ، ثملة مكتئبة ،
شاحبة العينين من النعاس . ولم يكن في روحها ما يكفي من المراحة لتفكر
بكتبتها - ثماني ساعات تنتزعها من العالم ومن حياتها لتمنحها الى آلة كتابة .
وصديقاتها يدركن ويفكرون بما عساها ستكون حياتهن اذ تبتريها هذه الساعات
الثماني ، وكان باتريس صامتاً .

قالت روز ، التي لا تحب ، مظاهر الحنان والعطف :

- إن هذا في الواقع يشغلك . ثم انك قبل كل شيء تحديثنا عن مكتبك
كل يوم .. أننا نحرملك حق الكلام .

وتأوهت كاترين قائلة :

- ولكن ...

- بالتصويت ، في هذه الحالة . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، الأغلبية ضدك .

قالت كلير :

- إنك ترين .

ووصل العدس ، مفرط الجفاف . فأكلوا جميعاً بصمت . عندما تطبخ كلير ،
تتذوق الطعام على الطاولة ثم تضيف دائماً بلهجة راضية :

- ولكن هذا ممتاز !

أما باتريس ، الذي يحافظ على رصانته ، فيفضل السكوت حتى اللحظة التي
ينفجر فيها الجميع بالضحك . وكاترين التي لم تكن ذلك اليوم موفقة في
خيالاتها ، ولكنها كانت تريد الحصول على اسبوع عمل بأربعين ساعة ، فقد
طلبت منهم ان يرافقوها الى « الاتحاد العام للعمل » .

قالت روز :

- لا ، انك انت التي تعملين ، بعد كل حساب .

ودهببت « قوة الطبيعة » لتستلقي في الشمس وهي ساخطة . ولكن ما
لبث الجميع أن وافوها الى هناك ، واعتقدت كلير ، وهي تداعب يامال شعر
كاترين ، ان ما ينقص « هذه الطفلة » هي في الحقيقة رجل . ذاك أن العادة
المألوفة في « البيت أمام العالم » هو أن يقرروا مصير كاترين ، وان ينسبوا اليها
حاجات يحددون لها امتدادها وتنوعها . صحيح انها كانت تلاحظ من وقت
الى آخر انها راشدة كفاية ، ولكنهم لا يستمعون اليها . وتقول روز :

- يا للمسكينة ! إنها بحاجة الى عشيق .

وبعد ذلك يستسلم الجميع لحرارة الشمس ، فتروي كاترين ، التي لم تكن
حقودة ، حكاية من حكايات مكتبها وكيف ان الآنسة بيريز ، الشقراء الطويلة ،
التي ستزوج عما قريب ، تطوف على الدوائر لتتوثق من الاوصاف الخفيفة التي يسر

المسافرين ان ينعتوهاها ، وكيف صرخت ، وهي تبسم عندما عادت من العطلة التي اخذتها بمناسبة الزواج: «لم يكن ذلك فظيماً الى هذا الحد». وتضيف كاترين في رثاء : « انها في الثلاثين » .

وقالت روز مستثكرة هذه القصص الخطيرة : « عجباً ، يا كاترين ، تنسين ان الموجودات هنا لسن فقط قتيات صبيات » .

في هذه الساعة ، يمرّ البريد الجوي فوق المدينة ، وينزّه زهو معدنه اللامع على الارض وفي السماء ، ويدخل في حركة الجون ، فينحني مثلها ، ويندمج بسباق العالم ، متخلياً هنا عن لعبه ، وينعطف فجأة ، ويفطس طويلاً في البحر ويعطّ في انفجار كبير من الماء الأبيض والأزرق. وتعدّد غولا وكالي على جنبيتها ، ومن خلال شذقيها الصغيرين الشبيهين بقم الأفعى كان يترامى سقف حلقها الوردي ، وكانت احلام مترفة فاحشة تخترقها وتحث ارتعاشات في جنبيتها. وسقطت السماء من الأعالي بكل حملها من الشمس والألوان . واحست كاترين ، وهي مغمضة العينين ، بالسقوط الطويل العميق الذي يعيدها الى اعماق ذاتها حيث يتحرك بلطف هذا الحيوان الذي ينتعش كأنه إله .

في الأحد التالي ، انتظروا ضيوفاً . وكان على كليز ان تطبخ . وقد قشرت روز الخضر ، وهيات الصحون والطاولة . ثم وضعت كليز الخضر في الأوعية وراقبت الطبخ وهي تقرأ في غرفتها . وبما ان ميناموريسك لم تأت ذلك الصباح لأنها فقدت والدها للمرة الثالثة في السنة ، فقد قامت روز أيضاً بالتنظيف . ووصل المدعوون ، وعلى رأسهم اليان ، التي يدعوهما مرسو «المثالية» فتسأله : «ولماذا ؟» فيجيبها : «لأنه حين يقال لك شيء حقيقي يفيظك تقولين : هذا صحيح ، ولكنه غير صالح » .

واليان ذات قلب طيب وتجد نفسها شبيهة بـ « رجل القفاز » وهو شبه ينكره عليها الجميع. ولكن غرفتها الخاصة مفروشة برسوم « رجل القفاز ». واليان تدرس . وفي أول مرة جاءت الى « البيت أمام العالم » صرحت بأنها مسحورة بانعدام الاحكام المسبقة عند ساكنيه . ومع الزمن ، وجدت هذا أقل ملاءمة . فان لا يكون لديك أحكام مسبقة ، فذلك يتضمن ان تقول لها ان القصة التي روتها وأتقنتها بما أضفته عليها من عنايات انما هي قصة مضجرة تماماً ، وان تصرّح بمحبة عند أقل جملة : « اليان ، لست سوى حمقاء » .

عندما دخلت اليان المطبخ مع « نويل » ، المدعو الثاني الذي يمتحن مهنة النعاعات ، وقعت على كاترين التي لم تكن تطبخ ابداً بوضع طبيعي . كانت مستلقية على ظهرها تأكل عنباً بييد وتحرك المايونيز الذي ما يزال في أوله بيدها الاخرى . اما روز ، التي كانت ترتدي مريولاً أزرق كبيراً ، فكانت تتأمل ذكاء غولا التي قفزت على الثريد لتأكل طعام الظهر .

قالت روز مغتبطة :

— لاحظي كم هي ذكية !

قالت كاترين :

— نعم ، انها تتفوق اليوم على ذاتها .

وأضافت ان غولا التي تزداد ذكاء قد كسرت هذا الصباح الصباح الصغير الاخضر وإماء للورود .

وقرر اليان ونويل ، اللذان كانا بلا شك مبهورين اكثر مما ينبغي ليعبرا عن قرفها ، قررا ان يتخذا لنفسها مقعداً لم يفكر احد ان يقدمه لها . ووصلت كلير ، لطيفة مسترخية ، فصافحت الأيدي وتذوقت حساء السمك على النار . وفكرت ان بالامكان الجلوس الى المائدة . ولكن باتريس هذا اليوم

كان متأخراً . إلا انه ما لبث أن وصل ، وبذلاقة لسان ، شرح لكثير انه سعيد لأن النساء كن جميلات في الشوارع .

كان الموسم الحار في مطلعه ، ولكن الاثواب الزاهية التي ترتجف تحتها اجسام قاسية قد ظهرت . وبسبب ذلك أحس باتريس بقمه جافاً ، وصدغيه خافقين وأحشائه حارّة ، وأمام هذه الدقة في التعابير ، لزمّت اليان وطهرها الصمت . وعلى المائدة ، تلا الذعر اولى ملاعق حساء السمك . قالت كثير ، المغساج ، بأسلوب صاف جداً :

- اخشى ان يكون لهذا الحساء طعم بصل محروق .

قال نويل ، الذي كان الجميع يحبون قلبه الطيب :

- ولكن لا .

وإذ ذاك رجته روز ، لتمتحن هذا القلب الطيب ، ان يشتري البيت عدداً من الاشياء النافعة كسخّان للحمام وسجاد عجمي وبراد . وأجاب نويل مشجعاً روز على ان تصلي له ليربح هو نفسه في اليانصيب .

قالت روز بواقعية :

- ما دام علينا ان نصلي ، فانا نصلي لأجلنا !

كان الجو حاراً حرارة كثيفة تجعل الخمر المثلج والفاكهة المخلوبة لتوها أطيب مذاقاً . وعند تناول القهوة ، تتحدث اليان عن الحب بشجاعة كبيرة . فلئن أحببت ، ستزوج . قالت لها كاترين ان اكثر الامور إلحاحاً عندما يحب المرء هو ممارسة الحب . وكان ان شجعت هذه السياسة المادية اليان . أما روز ، البراغمية ، فانها كانت توافقها « لو لم تكن التجربة » ، مع الاسف ، قد اثبتت ان الزواج يقتل الحب .

ولكن اليان وكاترين تقسران افكارهما في الماكسة فتصبحان جائرتين كما

يحصل عندما يكون المرء صاحب مزاج . أما نويل ، الذي يفكر حسب الأصول والمألوف فيعتقد بالمرأة وبالأولاد وبالحقيقة الأبوية في حياة حسية وازفة . وإذا أرهقت روز بصراخ اليان وكاترين ، تصنعت انها تفهم فجأة الغاية من زيارات نويل العديدة . قالت :

- انني أشكرك ؛ ولن أستطيع ان أعبر لك عن مبلغ تأثري بهذا الاكتشاف . وسأتحدث منذ الغد الى والدي عن « مشروعنا » وتستطيع أن تحدّثه عن طلبك في غضون أيام .

قال نويل الذي لم يفهم جيداً :

- ولكن ...

قالت روز باندفاع كبير :

- أوه . انني أعلم . انني أفهمك من غير ان تكون بحاجة للكلام . إنك من أولئك الذين يصمتون وهم يحتاجون الى أن يفهموا . والحق أنني سعيدة لكونك افصحت عن رأيك ، لأن تكرار زيارتك قد بدأ يمسّ طهارة سمعتي .

وبدا نويل مسروراً قلقاً بمض الشيء ، فأعلن عن ابتهاجه برؤية رغباته وقد توجّبت .

قال باتريس هويشعل لفافة :

- من غير ان تحسب ان عليك ان تسرع . فان وضع روز يلقي عليك تبعاً في استعجال الأمور .

قال نويل :

- ماذا ؟

قالت كلير :

— يا الهي ! اننا لسنا بعد إلا في الشهر الثاني .

وأضافت روز بحنان واقتناع :

— ثم انك بلغت السن التي يكون فيها المرء سعيداً بان يتعرف على ذاته في طفل رجل آخر .

وتجهم نويل قليلاً، وقالت كليز، بلهجتها الطفولية الطيبة :

— انها مزحة ! ينبغي أن تأخذها بروح النكتة . لننتقل الى الصالون .

وفي اللحظة نفسها انتهى النقاش حول المبادئ . ومع ذلك فان روز التي تقوم بتصرفاتها الجيدة في الخفاء تتحدث يهدوء الى اليان . وفي الغرفة الكبيرة ، وقف باتريس عند النافذة .

واستقامت كليز مستندة الى الطاولة واستلقت كإبريق على الحصير . أما الآخرون فقد جلسوا على الديوان ، وكان ضباب كثيف يرفّ على المدينة والمرفاً . ولكن السفن الجائرة تستأنف عملها ، وتحمل نداءاتها الرصينة الى هنا ، مع روائح القطران والسمك ، عالم الهياكل الحمراء والسوداء والمرابط الصدئة والسلاسل اللزجة بالفطر ، ذلك العالم الذي يستيقظ تحت . وككل يوم ، كان هو النداء الرجولي الاخوي لحياة تحمل مذاق القوة ، فيحس الجميع هنا باغرائها او ندائها المباشر .

قالت اليان لروز بحزن :

— وانت ايضاً ، في الواقع ، مثلي .

قالت روز :

— لا . انني أحاول فقط ان أكون سعيدة والى أقصى حدّ ممكن .

قال باتريس من غير ان يتلفت :

- وليس الحب هو الوسيلة الوحيدة .

إنه يكنّ شغفاً كبيراً للإليان ، ويخشى ان يكون قد آلمها اللحظة . ولكنه يفهم روز في ارادتها أن تكون سعيدة .

قالت اليان :

- إنه مثل أعلى رديء .

- لا أدري ان كان مثلاً أعلى رديئاً ، ولكنه مثل أعلى سليم . وهذا،
أترين ...

ولم يتابع باتريس ، وأغمضت روز عينيها قليلاً . وقفزت غولاً الى ركبتها .
وبدأ عبات طويلة على عظام ججمتها ، مهدت روز لهذا الزواج الخفي الذي
سترى فيه القطة المنمضة العينين نصف اغماضة وسترى المرأة الجامدة بالنظرة
نفسها عالماً متشابهاً كل منها يحلم بين نداءات السفن الطويلة . وتركت روز
يتصاعد اليها مواء غولاً الملتفة في تجويف جسدها . وكانت الحرارة تضغط على
عينيها وتفرقها في صمت مسكون بخفقات دمها . ان الهرة تنام اياماً بكاملها
وتتنحّب منذ بزوغ النجمة الاولى حتى الفجر . أن شهوتها تنهش ونومها ثقيل .
وهي تعلم أيضاً ان للجسد روحاً ليس للروح فيه اى نصيب .

قالت روز وهي تفتح عينيها :

- اجل ، أودّ أن أكون سعيدة . والى أقصى حدّ ممكن .

كان مرسو يفكر بلوسيان رينال . عندما كان قد قال منذ فترة قليلة ان
النساء كن جميلات في الشوارع ، كان يود ان يقول خاصة ان امرأة كانت قد
بدت له جميلة . وكان قد التقى بها عند اصدقاء . ولأسبوع خلا ، خرجاً معاً ،
واذ لم يكن عندهما ما يفعلانه ، فقد تنزها على البولفار ، بمحاذاة المرفأ ، في

صبيحة جميلة حارة . لقد امتنعت عن الكلام وحين صاحبها الى بيتها ، كان مرسو مندهشاً وهو يشد على يدها طويلاً ويبتسم لها . كانت طويلة ، ولم تكن تلبس قبة ، وكانت منتعلة صندلاً مكشوفاً ومرتدية ثوباً من الكتان الأبيض . كانا قد مشيا على البولفار في وجه ريح خفيفة . وكانت تضع قدمها مبسوفة على البلاط الحار ، وتستند اليها لترفع نفسها قليلاً . في وجه الريح وفي هذه الحركة ، كان ثوبها يلتصق بها ويرسم بطنها المسطح المكور . وكانت تمثل بشعرها الاشقر الملقى الى خلف ، وأنفها الصغير المستقيم ، وانطلاق نهدبها الرائع ، كانت تمثل وتؤكد نوعاً من الاتفاق السري كان يربطها بالأرض وينظم العالم حول حركاتها . وفيما كانت حقيبتها تتأرجح بيدها اليمنى المزينة بسوار من الفضة كان يقطع على القفل ، وعندما كانت ترفع يدها اليسرى فوق رأسها لتتقي الشمس ، وطرف رجلها اليمنى على الأرض ما تزال ، ولكنها على وشك ان تغادرها ، عندها كان يخيل لمرسو انها كانت تشد حركاتها الى العالم .

وآنذاك أحسّ بالتوافق السري الذي كان يؤلف خطواته وخطوات لوسيان . كانا يعيشان معاً بتناسق من غير ان يبذل اي جهد لينسجم معاً . صحيح ان هذا التوافق كان ميسراً بجذاء لوسيان المسطح . ولكن كان في دعساتها شيء مشترك بينها في الطول والمرونة . وفي آن واحد ، لاحظ مرسو صمت لوسيان وهيئة وجهها المنقبضة . وفكر بانها كانت على الأرجح ناقصة الذكاء ، وسرّ لذلك . هناك شيء إلهي في الجمال الخالي من الفكر ، وكان مرسو . يعرف أفضل من أي كائن آخر ، كيف يتأثر بذلك . كل ذلك جعله يطيل تلمسه لأصابع لوسيان ، ويقابلها كثيراً ، ويتنزه طويلاً معها بمسيرة صامتة مانحين وجهيهما المسمرتين للشمس او للنجوم ، ساجدين معاً ، مؤلفين حركاتها واقدامها من غير ان يتبادلا إلا حضور جسديهما . وقد تم ذلك كله حتى مساء

أمس إذ وجد مرسو معجزة مألوفة ومثيرة على شفيق لوسيان . إن ما كان
يشير به حق الآن كان طريقتهما في التعلق بشبابه ، واتباعه متأبطة ذراعه ، وذلك
الاستسلام وتلك الثقة اللذان كانا يسان الرجل فيه . وكذلك صمتها الذي كان
يضمها برمتها في حركتها الآنية ويكمل تشابهها مع القطط التي كانت تدن لها
بالرزانة التي كانت تسبغها على جميع اعمالها .

وأمس ، بعد العشاء ، كان قد تنزه على المرفأ معها . وذات لحظة ، كانا قد
توقفا على حاجز البولفار فالتصقت لوسيان بمرسو . وفي الليل احس تحت
اصابعه بالوجنتين المثلجتيين البارزتين ، والشفتين الدافئتين دفئاً كان الاصبع
يفوص فيه . وإذ ذاك احس في نفسه ما يشبه صراخاً كبيراً متجرداً ملتهباً .
وأمام الليل المثلج بالنجوم ، والمدينة ، كسماء مقلوبة مليئة بالأضواء البشرية
تحت النفس الساخن العميق الذي كان يصعد من المرفأ نحو وجهه ، كان يراوده
العطش لهذا النبع الدافئ ، وتعصف به ارادة لا تكبح لكي يلتقط على
هاتين الشفتين النابضتين كل معنى هذا العالم اللانساني الغافي ، كأنه صمت مسجون
في فمها . وانحنى فكان ذلك كما لو أنه كان يضع شفتيه على عصفور . وأنت
لوسيان . وكان بعض شفتيها طوال دقائق ، وفمه لصق فمها ، كان يشرق
هذا الدفء الذي كان يحمله كما لو انه كان يضم العالم بين ذراعيه . وكانت هي ،
اثناء ذلك ، تشبث به ، كأنها غريقة ، وتنبثق بدفعات من هذا الثقب الكبير
العميق الذي كانت ملقاة فيه ، وتبعد شفتيها اللتين كانت تجذبها بعد ذلك ،
لتسقط في المياه المجددة السوداء التي كانت تحرقها كشعب من الآلهة .

... ولكن اليان كانت قد بدأت بالذهاب . وكان عصر طويل من الصمت
والتفكير ينتظر مرسو في غرفته . وعند العشاء كانوا جميعهم صامتين .
ولكنهم بتوافق موحد انتقلوا جميعاً الى السطيحة . ان النهارات تنتهي دائماً

بان تلتحق بالنهارات . من الصباح على الجون ، المتلألئ بالغيوم والشمس ، حتى
عذوبة المساء ، على الجون يبرز النهار على البحر ويغيب خلف الروابي لأن
السماء لا تكشف إلا طريقاً واحداً ينطلق من البحر حتى الروابي . ان العالم
لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . فيفري ثم يسثم . ولكن يأتي دائماً وقت
ينتصر فيه بقوة الترداد فيقبض ثمن مثابرته . وهكذا فان أيام البيت امام
العالم ، المنسوجة من القماش المترف للضحكات والحركات البسيطة تنتهي على
السطيحة أمام السماء المليئة بالنجوم . كانوا يتمددون على مقاعد طويلة ، وكانت
كاترين جالسة على حائط السور .

وفي السماء ، يلتصق وجه الليل المعتم ملتجئاً وسرياً ، وتقرّ أضواء بعيدة
جداً في المرفأ ويتباعد زئير القطارات . وتكبر النجوم ثم تتقلص وتختفي
ثم تولد من جديد ، موحدة وجوها متقلبة فيما بينها . وفي الصمت ، يسترد الليل
كثافته ولحمه ، ومثقلاً بانزلاقات نجومه ، كان يترك في العيون الاعيب الأضواء
التي تضع فيها الدموع . وكان كل واحد ، وهو يفوس في اعماق السماء ، يلتقي
في هذه النقطة القصوى التي يلتقي فيها كل شيء ، الفكرة الحقة الحنونة التي
تشكل كل وحدة حياته .

ولم تستطع كاترين ، التي خنقها الحب فجأة ، إلا ان تنهد . ومع ذلك فقد
سأل مرسو الذي أحس بصوتها متغيراً :

— ألا تشعرين بالبرد ؟

قالت روز :

— لا . ثم ان ذلك جميل جداً .

ونفضت كلير ، فوضعت يديها على الحائط ومدت وجهها نحو السماء .
وأمام كل ما في العالم من بدائي ورفيع ، مزجت بين حياتها وبين شهوتها الى
الحياة ، وخلطت أملها مع حركة النجوم . وحين تبهرت فجأة توجهت قائلة
لباتريس :

— في الأيام الطيبة ، حين تمنح الحياة الثقة ، فهذا يجبرها على ان تردّ بالمثل .

قال باتريس من غير أن ينظر اليها :

— نعم .

وانخطفَت نجمة ، وخلفها ، انتشر ضوء منارة بعيدة في الليل الذي ازداد الآن حلكة . وتسلق رجال الطريق صامتين . وكانوا يُسمعون وهم يراو حون ويتنفسون بشدة . وبعد قليل فاح عير ورود .

إن العالم لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . وفي هذه الحقيقة الصابرة التي تنتقل من نجمة الى نجمة ، تترسخ حرية 'تحلّنا من ذواتنا ومن الآخرين' ، شبيهة بتلك الحقيقة الصابرة الأخرى التي تنتقل من الموت الى الموت . آنذاك كانت باتريس وكاترين وروز وكلير يعون السعادة التي تولد من استسلامهم للعالم .

ولئن كان هذا الليل كوجه مصيرهم ، فانهم معجبون بأن يكون حسيّاً وسريّاً في وقت واحد ، وان تختلط على وجهه الدموع والشمس . ويعرف قلبهم المليء بالألم والفرح أن يستمع الى هذا الدرس المزدوج الذي يقود نحو الموت السعيد .

الوقت متأخر الآن ، فقد بدأ منتصف الليل . وعلى جبين هذا الليل الذي يشبه راحة العالم وفكره ، كان تضخم أصمّ وجلبة نجوم ينبئان باليقظة القادمة . ومن السماء ، المفعمة بالكواكب ، ينحدر نور راجف . وينظر باتريس الى صديقاته : كاترين مقرفصة على الحائط ، رأسها مقلوب الى الوراء ، وروز ، قابضة في الكرسي الطويل ، يداها مبسوطتان على غولا ؛ وكلير واقفة متصلة لإزاء الحائط تعلو لطخة بيضاء جبينها المقبب . كائنات شابة ، قابلة للسعادة يتبادلون شبابيم ويحتفظون بأسرارهم . واقترب من كاترين ، ونظر من فوق كتفها المصنوعة من اللحم والشمس في كرويتها الساوية . واقتربت روز من الحائط فاصبحوا هم الأربعة أمام «العالم» . كان ذلك كما لو ان الندى الليلي الذي غدا

فجأة أكثر نضارة كان يغسل عن جباههم أمارات وحدتهم ويحرّرم من ذواتهم ،
وهذا التعميد الراجف الخاطف كان يعيدهم الى العالم ، وفي تلك الساعة التي
يفيض فيها الليل بالنجوم ، تتسمّر حركاتهم على وجه السماء الكبير الاصم .

ورفع باتريس ذراعه نحو الليل وجرف في انطلاقته باقات من النجوم ، وماء
السماء الذي خففته ذراعه ومدينة الجزائر تحت قدميه ، وحولهم ما يشبه معطفاً
قائماً متلألئاً بالجوهر والاصداق .

الفصل الرابع

في الصباح الباكر ، كانت سيارة مرسو تجري على طريق الساحل بمصباحها المنخفضي "الضوء". وحين خرج من مدينة الجزائر ، كان قد أدرك وتجاوز عربات بائعي اللبن ، وكانت رائحة الخيول الممزوجة من العرق الحار والزريبة ، قد جعلته أكثر تذوقاً لنضارة الصباح . كان الوقت ما يزال ليلاً ، وكانت نجمة اخيرة تذوب ببطء في السماء ، وعلى الطريق الملتئم في الظلمة ، كان يلحظ فقط صوت وحش المحرك السعيد ، وأحياناً على بعد طفيف ، خيب حصان وضجيج عربية مليئة بالصعائح ، الى ان استطاع ان يدرك ، على الخلفية السوداء للطريق ، يريق الحديد اللعاع المرتفع على اقدام الحصان . ثم كان كل شيء يضمحل في ضجيج السرعة . كان الآن يسبح بسرعة اكبر ، وكان الليل يميل بسرعة نحو النهار .

وفي اعماق الليل المتراكم بين رواي مدينة الجزائر ، كانت السيارة تخرج على طريق مאלكة تشرف على البحر حيث كان الصباح يكتمل . واطلق مرسو لسيارته العنان . كانت العجلات تضاعف على الطريق الرطب بالندى اصواتها الصغيرة الشبيهة بأصوات محجم . وعند كل منعطف ، كانت ضربة مكبح تجعل العجلات تزار على نحو حاد ، وفي الخط المستقيم كان خريز الاقلاع الجديد يطفئ لحظة على اصوات البحر الصغيرة التي كانت تصعد من الشواطئ ، على مستوى ادنى . إن الطائفة وحدها تتيج وحدة يتحسسها الانسان اكثر مما يتحسس الوحدة التي يكتشفها في السيارة . وقد كان مرسو ، وهو حاضر أمام نفسه حضوراً تاماً ، راضٍ رضى واعياً عن دقة حركاته ، يستطيع في الوقت

نفسه ان يعود الى ذاته وإلى ما كان يشغله . كان النهار الآن مشرعاً عند طرف الطريق . وكانت الشمس ترتفع على البحر ومعها كانت الحقول ذات الحواشي ، المقفرة ، للحظة خلت ، تستيقظ مليئة بالمصافير والحشرات ذات الطيران الأحمر . أحياناً كان فلاح يجتاز أحدها فلا يحفظ مرسو ، وهو مدفوع بالسرعة ، إلا صورة طيف يحمل كيساً ، ويطأ بكل ثقل خطواته على الأرض الدهنية التارّة . وكانت السيارة تعيده بانتظام الى المنحدرات التي تسيطر على البحر . وكانت هذه المنحدرات تتضخم ، وكان طيفها ، الذي لم يكن منذ لحظات يتميز إلا كظل صيني تجاه النهار ، يقترب بسرعة ويتضخم بدقائقه ويقدم لمرسو جنباته المكشوفة فجأة ، مليئة بشجرات الزيتون والصنوبر والبيوت الصغيرة المطينة . ثم كان ينتفخ بالمدّ ويصعد نحو مرسو ، كقربان مليء بالملح والحمرة والنعاس ، وكانت السيارة آنذاك تمر على الطريق وتتجه من جديد نحو منحدرات أخرى ونحو البحر ذاته . لشهر خلا ، كان مرسو قد أعلن رحيله عن « البيت أمام العالم » . كان يريد ان يسافر أولاً ثم يستقر في ضواحي مدينة الجزائر . وبعد بضعة أسابيع عاد ، متأكداً من ان السفر كان يمثل له بعد الآن حياة غريبة : كان الاغتراب يبدو له فقط سعادة انسان قلق ، كما انه كان يحس في ذاته تعباً غامضاً . كان متمجلاً ليحقق المشروع الذي سبق ان وضعه لشراء بيت صغير بين البحر والجبل ، في الشنوة ، على بعد كيلومترات من خرائب تيبازا . ولدى وصوله الى مدينة الجزائر ، كان قد صمم الديكور الخارجي لحياته ، فاشترى كمية هامة من المستحضرات الصيدلانية الألمانية وعين موظفاً كان يدفع له للاشراف على العمل ، مبرراً بهذه الطريقة غياباه عن مدينة الجزائر والحياة المستقلة التي كان يحياها . وكان العمل يسير في ما تبقى بطريقة ما ، وكان يتكفل بالعجز الاتفاقي ، مضيفاً بلا تأنيب ضمير ، هذه الضريبة الى حريته العميقة . كان حسبه بالفعل ان يقدم للعالم وجهاً يستطيع ان يفهمه ، ويضطلع الكسل والجبن بالباقي . إن الاستقلال يُكتسب

بنعوض كلمات رخيصة من كلام الاعتراف. ثم اهتم مرسو فيما بعد بمصير لوسيان .
لم يكن لها اهل ، وكانت تعيش وحدها . وكانت سكرتيرة في متجر
لللحم ، وكانت تقتات بالفاكهة وتقوم بالرياضة البدنية . وقد اعارها مرسو
كتباً فأعادتها اليه من غير ان تقول شيئاً . وكانت تجيب على اسئلته . بقولها :
« نعم نعم . انها جيدة » . او : « هذا حزين بعض الشيء » . وفي اليوم الذي
قرر فيه أن يغادر مدينة الجزائر ، عرض عليها ان تعيش معه ، على ان تقيم في
مدينة الجزائر من غير ان تعمل ، وان توافيه عندما يكون بحاجة اليها . قال
ذلك باقتناع كاف لكي لا ترى لوسيان في الأمر اي شيء «مذل» ، والحق انه
لم يكن فيه اي شيء مذل . وغالباً ما كانت لوسيان تلاحظ يجسدها ما كان
فكرها يعجز عن فهمه ، فقبلت . وأضاف مرسو :

— اذا كنت حريصة على ان تتزوجي ، فباستطاعتي ان أعدك بالزواج
منك . ولكن ذلك لا يبدو لي مفيداً .

قالت لوسيان :

— كما تشاء .

بعد اسبوع ، كان يتزوجها وينتهي للذهاب . وفي أثناء ذلك اشترت لوسيان
لنفسها قارباً برتقالي اللون لتذهب الى البحر الأزرق .

وتجنب مرسو ، بضربة مقود ، دجاجة صباحية . كان يتذكر حديثاً كان قد
أجراه مع كاترين . وكان قد غادر «البيت أمام العالم» عشية يوم السفر ليضي
ليلة وحيداً في الفندق .

كان ذلك في أول العصر ، ولما كانت الدنيا قد امطرت في الصباح ،
فان الجون كان بأكمله كزجاج مغسول ، والسماء كغسيل رطب . وبالمواجهة
تماماً ، كان الرأس الذي كان ينهي دائرة الجون يرسم بنقاء عجيب ، وكان

يتمدد مذهباً شعاع الشمس ، أشبه بحية صيف كبيرة . وكان باتريس قد انتهى من استعدادة للسفر ، وكان الآن ، وذراعاه على قائمة واجهة النافذة ، ينظر بنهم إلى هذه الولادة الجديدة للعالم .

— لا أفهم لماذا تذهب ، ان كنت سعيداً هنا .

هذا ما كانت كاترين قد قالت له .

— انني أخشى أن أحب هنا ، يا صغيرتي كاترين ، وهذا سيدعني من أن أكون سعيداً .

كانت كاترين ملتفة على نفسها على الأريكة ، منخفضة الرأس بعض الشيء ، وكانت تنظر باتريس بنظرها الجميل الخالي من العمق . وقد قال من غير أن يلتفت :

— كثير من الرجال يعقبون وجودهم ويخترعون لأنفسهم مصائر . أما أنا ، فالأمر عندي بسيط ، انظري .

كان يتكلم بمواجهة العالم ، وكانت كاترين تحس نفسها منسية . كانت تنظر الى أصابع باتريس الطويلة والمتدلية عند طرف ساعده المطوي على قائمة النافذة ، وإلى طريقته في إسناد جسده على جانب واحد ، وإلى نظره الثائه الذي كانت تجزره من دون أن تلاحظه .

قالت :

— ما أودة ...

ولكنها سكنت ، ونظرت إلى باتريس ، كانت أشعة صغيرة قد بدأت في عبور البحر منتبهة فرصة الهدوء . كانت تبلغ المضيق قتملاًه بخفقات الأجنحة ثم ، فجأة تحول جريها نحو عرض البحر ، يرافقه نحر من الهواء والماء كان يتفتح بارتعاشات طويلة مزبدة . ومن مكانها ، وبقدر ما كانت تقترب الاشرعة من البحر ، كانت كاترين تراها ترتفع حول باتريس كرفيف طيور بيضاء . وبدأ

أنه يحس صمتها ونظرها ، فالتفت ، وأمسك بيديها وضعها إليه .
— لا تتراجعي ، أبدأ ، يا كاترين . انك تملكين الكثير من الأشياء في نفسك ،
وانبلها جميعاً حسن السعادة : لا تنتظري الحياة فقط من رجل بسبب ذلك .
تخطيء الكثيرات من النساء . ولكن انتظريها من ذاتك .

قالت كاترين يهدوء وهي تأخذ كتف باريس :
— إنني لا اشتكي ، يا مرسو . هناك شيء واحد مهم الآن . اعتنِ بنفسك .
وأحس إذ ذاك كم كان يقينها يستند على قليل من الأشياء ، وكان قلبه جافاً
بطريقة غريبة .

— كان عليك ان لا تقولي ذلك الآن .
وتناول حقييته وهبط في بادية الأمر السلم الواقف ثم سلك الطريق
المبتدئ من شجرات الزيتون حتى شجرات الزيتون . ولم يكن شيء ينتظره بعد
سوى الشنوة ، غابة في الخرائب والأبست ، وحب بلا أمل ولا يأس ترافقه
ذكرى حياة من الخلل والورود . والتفت فوق ، كانت كاترين تنظر اليه يرحل ،
بلا حراك .

وبعد أقل من ساعتين بقليل وصل مرسو مقابل شنوة . في هذه اللحظة
كانت أضواء الليل البنفسجية الأخيرة ما تزال تنسحب على منحدراتها التي كانت
تغطس في البحر بينما كانت للقمّة تشع بالأضواء الحمراء والصفراء . كان هناك ما
يشبه اندفاعاً قوياً وكثيفاً للأرض ينطلق من منحدرات السهل التي كانت ترسم
جانباً عند الأفق ، لتنتهي عند هذا الظهر الضخم للحيوان العاقل الذي يغطس
في البحر بقامته كلها .

وكان البيت الذي اشتراه مرسو يرتفع عند آخر المنحدرات على ارتفاع ما
يقرب من مئة متر عن البحر الذي كانت قد ذهبته الحرارة . لم يكن يتكون إلا
من طابق واحد فوق الطابق الأرضي ، وفي هذا الطابق لم يكن ثمة سوى غرفة

واحدة مع توابعها . ولكن هذه الغرفة كانت واسعة ، كانت تنفتح على الحديقة
الأمامية ، ثم على البحر يحون رائع مطوّل بسطيحة وقد صعد مرسو اليه بسرعة .
كان البحر قد بدأ يرسل بخاره ، وفي آن واحد أخذت زرقته تزداد دكنة ،
بينما كانت حمرة بلاطات السطيحة الحارة تكتسب إشراقته ولمعانه . وكان
الدرابزون المملطيتيح لأولى أزهار شجرة ورد رائعة معرّشة أن تتسلل خلاله .
كانت الورود بيضاء ، أما التي كانت مفتحة ، متفرقة على البحر ، فقد كان في صلابة
لحها ما هو مشبيح وخصب . ومن غرف الطابق الأسفل ، كانت احداها تطل
على أول منحدرات الشنوة ، الملوّء بالأشجار المثمرة ، بينما تطل الغرفتان
الأخريان على الحديقة ، وعلى البحر . وفي الحديقة ، كانت شجرة صنوبر تقذفان
في السماء جذعيهما اللامتناسقين اللذين تغطي طرفيهما فقطفروة مصفرة وخضراء .
ومن البيت لم يكن المرء يستطيع ان يرى إلا الفضاء المسجون بين هاتين
الشجرتين والحناءة البحر بين الجذعين . في هذه اللحظة على الأقل ، كان بخار
خفيف يمر في عرض البحر ، وقد نظر مرسو اليه أثناء الرحلة الطويلة التي قطعها
من صنوبرة إلى أخرى .

هنا كان سيعيش . وكان جمال هذه الأماكن يؤثر بلا شك على قلبه . لأجلها
أيضاً كان قد اشترى هذا البيت . ولكن الراحة التي كان قد أمل أن يجدها هنا
كانت تخيفه الآن . وهذه الوحدة التي كان قد بحث عنها بهذا القدر من الوضوح
كانت تبدو له أشد إقلاقاً ، لا سيما وأنه الآن كان يعرف إطارها . لم تكن
القرية بعيدة بل كانت على بعد بضع مئات من الامتار . وخرج . كان درب
صغير يهبط من الطريق نحو البحر . وإذ دلف اليه ، لاحظ لأول مرة انه كان
بالامكان رؤية رأس تبارازا الصغير ، من الناحية الأخرى للبحر . على طرف
هذا الرأس ، كانت أعمدة المعبد المذهبة تتقاطع ، ومن حولها الخرائب المندثرة
بين اشجار الأبست التي كانت تشكل ، على مسافة ماء ، فروة رمادية وصوفية .
وفكر مرسو بأن الريح ، في أمسيات حزيران ، لا بد من ان تحمل إلى شنوة ،

عبر البحر ، العطر الذي كانت تفيض به أشجار الأبننت المفعمة بالشمس .

كان عليه ان يجهز مسكنه وينسقه . وقد مضت الأيام الأولى بسرعة : طلى الجدران بالكلس ، واشترى بسطاً من مدينة الجزائر ، وأعاد التمديد الكهربائي . وفي هذا العمل المتقطع في النهار بالوجبات التي كان يتناولها في مطعم الضيعة وبحمامات البحر ، كان ينسى لماذا أتى إلى هنا ، وكان يتوزع في تمب جسده ، بجوف الكليتين ، متصلب الساقين ، مهموماً من نقص الدهان أو من التركيب الفاسد لمفصلة في الممر . وكان ينام في الفندق ويتعرف شيئاً فشيئاً على الضيعة : الصبيان الذين كانوا يأتون بعد ظهر الأحد ليلعبوا بالبليار الروسي والبنغ - بونغ . (كانوا يمتثلون الألعاب بعد الظهر كله ، ولم يكونوا يتناولون إلا طلباً واحداً ، مما كان يثير غيظ صاحب الدكان) ؛ والبنات اللواتي كن يتزهن مساء على الطريق التي كانت تشرف على البحر (كن يتماسكن بالاذرع وكانت اصواتهن تغني قليلاً على المقاطع الاخيرة للكلمات) ؛ و « بيريز » الصياد الذي كان يزود الفندق بالسماك ولم تكن له إلا ذراع واحدة ، وهناك أيضاً التقى بطبيب القرية ، برنار . ولكن في اليوم الذي تم فيه ترتيب كل شيء ، نقل مرسو إلى المنزل حوائجه ، ورجع بعض الشيء إلى نفسه . وكان ذلك في المساء . كان في غرفة الطابق الأول ، وخلف النافذة كان عالمان يتنازعان الفضاء بين الصنوبرتين ، وكانت النجوم في احدهما ، المائل الى الشفافية ، تتساقط . وفي الآخر ، الأكثر كثافة وسواداً ، كان خفقان ماء خفية يشتر بالبحر .

حتى ذلك الحين كان قد عاش في حالة الاستبداد ، ملتقياً بالعمال الذين كانوا يساعدونه أو مثرثراً مع صاحب المقهى ، ولكن في ذلك المساء وعى انه لم يكن ثمة أحد يلقاه ، لا غداً ولا أبداً ، وانه كان وجهاً لوجه مع الوحدة التي طالما تنافسها . ومنذ اللحظة التي كان عليه ان يلقي فيها احداً ، بدا له اليوم التالي قريباً بشكل مريع . بيد أنه أقنع نفسه بأن هذا هو ما سبق له ان اراده : هو امام نفسه ولوقت طويل وحتى النهاية . وصمم على ان يظل يدخن ويفكر حتى ساعة

متأخرة في الليل . ولكنه حوالي الساعة العاشرة أخذته النعاس فنام . في اليوم التالي استيقظ متأخراً جداً ، عند العاشرة تقريباً ، فهاً فطوره وتناولوه قبل ان يأخذ زينتته . كان يحس نفسه تعباً بعض الشيء . ولم يكن قد حلق ذقنه وكان شعره مبعثراً . ومع ذلك ، فانه ، بعد أن أكل ، وبدلاً من ان يدلف إلى الحمام ، تاه من غرفة إلى أخرى ، مقلباً أوراق مجلة ، وأحس أخيراً انه سعيد إذ وجد عاكساً للتيار الكهربائي متديلاً من الحائط فباشر العمل . وطرق الباب . وكان هو صبي الفندق الصغير الذي كان يحضر له غداءه كما سبق ان اتفق معه البارحة . وكما كان ، وبكسل ، جلس الى الطاولة ، وأكل من غير شهية قبل ان تبرد الصحون ، وأخذ يدخن ، متمدداً على أريكة غرفة الطابق الاسفل . عندما استيقظ ، غاضباً لكونه قد نام ، كانت الساعة الرابعة . وإذ ذاك هندم نفسه ، وحلق بعناية ، ثم ارتدى ثيابه وكتب رسالتين ، احداهما للوسيان والاخرى للتلميذات الثلاث . كان الوقت إذ ذاك متأخراً جداً ، وكان الليل يهبط ، ومع ذلك ، فقد ذهب حتى القرية ليلقي رسائله في البريد ، وعاد من غير أن يكون قد التقى أحداً . وصعد إلى غرفته ، ثم خرج الى السطحة . كان الليل والبحر يتحاوران على الساحل الرملي وفي الخرائب .

وكان هو يفكر . وكانت ذكرى هذا اليوم الضائع تسممه . وذلك المساء ، على الأقل ، كان يريد ان يشتغل ، ان يعمل شيئاً ما ، ان يقرأ أو يخرج ليمشي في الليل . وصرّ حاجز الحديقة المشبك : هذا عشاؤه يصل . كان جائعاً فأكل بشهية ، وأحس نفسه عاجزاً عن الخروج . وقرر أن يقرأ طويلاً في السرير . ولكن عينيه أغلقتا عند الصفحات الأولى ، وفي اليوم التالي استيقظ متأخراً .

في الأيام التالية ، حاول مرسو ان يقاوم هذا الاجتياح . وبقدر ما كانت الأيام تمر ، مليئة كلها بصريير الحاجز المشبك واللغائف التي لا تعد ، كان القلق يأخذ به وهو يقدر التفاوت بين الحركة التي كانت قد قادته إلى هذه الحياة

وهذه الحياة نفسها . وذات مساء ، كتب للوسيان يدعوها قاطعاً بهذه الطريقة الوحدة التي طالما كان ينتظرها . عندما ذهبت الرسالة ، كان خجل قد افترسه ، ولكن عندما وصلت لوسيان ، ذاب هذا الخجل في نوع من الفرح الأبله المتعجل اجتاحه . وهو يرى كأنها مألوفاً ، ويرى الحياة المريحة التي كان حضوره ينطوي عليها . وأخذ يهتم بها ، ويبدى حفاوة كبيرة ، وكانت لوسيان تنظر اليه بشيء من الدهشة ، ولكنها كانت دائماً منهمكة بفساقتها من الكتان الأبيض المكوّنة جيداً .

وبعدها خرج الى القرية ، ولكن مع لوسيان . واستردّ تواطؤه مع العالم ، ولكن وهو يضع يده على كتف لوسيان . وحين لاذ بالإنسان فيه ، كان يهرب من خوفه الخفي . ومع ذلك ، فبعد يومين كانت لوسيان تضجّره . وقد اختارت هي هذه اللحظة بالذات لتطلب اليه ان تعيش بالقرب منه . كانا يتناولان العشاء ، وكان مرسو قد رفض بوضوح من غير ان يرفع عينيه عن صحنه .

وبعد لحظة صمت ، كانت لوسيان قد أضافت بصوت محايد :

— انت لا تحبني .

فرفع مرسو رأسه . كانت عيناها مليئتين بالدموع . ورق لها :

— ولكنني لم أقل ذلك أبداً ، يا صغيرتي .

قالت لوسيان :

— هذا صحيح ، وهذا هو السبب .

ونفض مرسو ، فصار نحو النافذة . بين شجرتي الصنوبر ، كانت النجوم تتكاثر في الليل . ربما لم يسبق لباتريس قط أن أحسّ في قلبه ، وفي آن واحد ، بقلقه وبمثل هذا التقزز من الأيام التي انقضت . وقال :

— انت جميلة يا لوسيان . إنني لا رى أبعد من ذلك . ولا اطلب منك
اكثـر من هذا . ان ذلك يكفينـا نحن الاثنين .

قالت لوسيان : — أعرف ذلك .

وكانت توليه ظهرها ، وكانت تحكّ الخوان ، بحـد سكينها . وقد أقبل
عليها وأمسكها من رقبتها :

— صدّقيني ، ليس هناك ألم كبير . ولا ندامات كبيرة ولا ذكريات كبيرة .
كلّ شيء ينسى ، حتّى الحب الكبير . هنا يكمن كل ما في الحياة من حزين
ومثير في وقت معاً . هناك فقط طريقة ما في النظر الى الأشياء ، وهي تنبعث
من وقت الى آخر . من أجل ذلك يستحسن ، بالرغم من كل شيء ، ان يكون
المرء قد عرف حباً كبيراً ، او عاطفة شقيّة في حياته . هذا يخلق على الأقل
ذريعة للباس الذي لا مبرر له والذي نحن تحته رازحون .

وبعد فترة ، فكر مرسو وأضاف :

— لا أدري ان كنت تفهميني .

قالت لوسيان :

— اعتقد انني افهم .

وأدارت فجأة رأسها نحوه :

— انت لست سعيداً .

قال مرسو بعنف :

— سأكون سعيداً . يجب ان أكونه . بفضل الليل وهذا البحر وهذه
الرقبة تحت أصابعي .

وكان قد اتجه نحو النافذة ، وشدّ يده على رقبة لوسيان . وكانت تلتزم

الصمت . ثم قالت من غير ان تنظر اليه :

— إنك على الأقل ، تكن لي بعض الصداقة ؟

ركع مرسو أمامها وهو بعض كتفها :

— صداقة ، نعم ، كما أكنّ صداقة الليل . انك فرحة عيني ، وانت لا تعلمين اي مكان يمكن ان تحتله هذه الفرحة في قلبي .

وذهبت في اليوم التالي . وفي اليوم الذي تلاه ، كان مرسو ، وقد عجز عن ان يأتلف مع نفسه ، يصل الى مدينة الجزائر بالسيارة . وقد ذهب أولاً الى « البيت أمام العالم » . ووعده صديقاته بان يذهبن لرؤيته في اواخر الشهر نفسه . واراد اذ ذاك ان يعود الى حيه .

كان بيته قد أجر لصاحب مقهى . واستخبر عن البراميلي فلم يستطع أحد افادته . كانوا يعتقدون انه ربما كان قد ذهب الى باريس بحثاً عن عمل . وتنزّه مرسو . وفي المطعم ، كان سيليست قد شاخ — قليلاً . وكان رينه ما يزال هناك ، مع سله وهيشته الرزينة . وقد سعدوا جميعاً بان يروا مرسو من جديد ، وكان هو متأثراً بهذا اللقاء .

قال له سيليست :

— أوه ، يا مرسو ، انت لم تتغير !

قال مرسو : نعم .

كان يعجبه هذا الاصرار العجيب على ان يفرض الناس على اصدقائهم ، بالرغم من كونهم مطلعين اطلاقاً كبيراً على ما يتغير في ذواتهم ، الصورة التي كونوها عنهم مرة الى الابد .

وبالنسبة له ، فقد كانوا يحكمون عليه وفقاً لما سبق ان كانه . وككلب

لا يغير من طباعه ، كذلك فان الناس هم كلاب في نظر الانسان . وبالقدر نفسه الذي كان فيه سيليست ورينه والآخرين قد عرفوه ، فقد كان يصبح بالنسبة لهم غريباً ومنغلقاً ككوكب غير مأهول . ومع ذلك ، فقد تركهم بصداقة . وبينما هو خارج من المطعم ، التقى ببارت . وإذ رآها ، وعى انه كان قد نسيها تقريباً وانه كان في الوقت نفسه يأمل ان يلقاها . لقد كان لها دائماً وجه الإلهة المرسومة . وقد اشتهاها خفية ولكن من غير اقتناع . وسارا معاً .

قالت له :

— أوه ، يا باتريس ، كم انا مسرورة . ماذا أصبحت ؟

— لا شيء . كما ترين . انني اسكن القرية .

— هذا رائع ! لقد حملت انا دائماً بذلك

وبعد صمت ، قالت :

— أتعلم ؟ إنني غير حاقدة عليك .

قال مرسو وهو يضحك :

— نعم . لقد تعزيت .

وإذ ذاك اتخذت مارت لهجة لم يكن يعهدا فيها قط :

— لا تكن خبيثاً ، أتريد ذلك ؟ كنت اعرف جيداً ان هذا سينتهي هكذا يوماً ما . لقد كنت شخصاً عجيباً ، وانا لم اكن سوى فتاة صغيرة كما كنت تقول . وعندما حصل الأمر غضبت طبعاً . انت تفهم . ولكنني انتهيت الى ان أقول لنفسى انك كنت تبيعساً . وهذا غريب . انني لا أعرف جيداً ان اعبر عن هذا ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي أدرك فيها ان بما كان حدث بيننا قد جعلني حزينة وسعيدة في آن واحد .

نظر اليها مرسو ، مندهشاً . كان يفكر فجأة بأن مارت كانت دائماً على علاقة طيبة جداً معه . كانت قد تقبلته على علاقته ، وكانت قد انتزعت من كثير من الوحدة . ولقد كان غير منصف . ففي الوقت نفسه الذي كان فيه خياله ، وزهوه قد منحاهما من القيمة اكثر مما ينبغي ، فان غروره لم يمنحها من هذه القيمة ما فيه الكفاية . كان يحس بأية مفارقة قاسية 'نخدع دائماً مرتين بالأشخاص الذين نحبهم ، لصالحهم أولاً ولغير صالحهم فيما بعد . وهو يدرك اليوم ان مارت قد كانت طبيعية معه - وانها قد كانت ما كانته ، وبهذه الصفة كان مديناً لها بالكثير . كانت الدنيا تطر رذاذاً ما يكفي بالضبط لمضاعفة أضواء الشارع وتبيديدها . وعبر نقط الأنوار والمطر ، كان يرى وجه مارت الجاد فجأة فيحس نفسه مأخوذاً بعرفان مضطرب لم يكن يتوصل للتعبير عن نفسه ، عرفان كان بإمكانه ، في أوقات اخرى ، ان يعتبره نوعاً من الحب . ولكنه لم يعرف ان يجد إلا كلمات مسكينة ، فقد قال لها :

- انت تعلمين ، انني احبك كثيراً ! والآن ايضاً ، لو كنت استطيع شيئاً ..

ابتسمت له ، وقالت :

- لا . انني شابة : وإذن فانني لا أحرم نفسي .

وأوماً موافقاً . منه اليها ، أيّ بعد كان بينها واي تفاهم خفي ، في آن واحد .. وتركها امام بيتها . وكانت قد فتحت مظلتها . قالت :

- أأمل ان نلتقي .

قال مرسو : « نعم » .

وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة . قال مرسو :

- أوه . ان لك الآن وجه الفتاة الصغيرة .

كانت قد انسحبت تحت الباب واغلقت مظللتها . ومدّ لها باتريس يده
وابتسم بدوره :

— الى اللقاء ، يا تجلّ .

وشدت عليها بسرعة ، وفجأة قبلته من وجنتيه ، وصعدت السلم
وهي تركض . وظل مرسو تحت المطر ، وكان ما يزال يحس على وجنتيه انف
مارت البارد وشفقتها الحارّتين .

وتلك القبلّة الفجائية المتجرّدة ، كان لها النقاء كله الذي كان لقبلة بغّي فيينا
الصغيرة ذات الشمس .

ومع ذلك ، فقد ذهب للقاءة لوسيان ، ونام عندها . وفي اليوم التالي
طلب منها ان يسيرا على البولفار . كانت الساعة تقارب الظهر عندما هبطا .
وكانت اصداف وردية تجف في الشمس كشار مقسمة الى حصص . وهبط
طيران مزدوج للحمام واطلال الحمام نحو المراقي ليصعد في الحال بانحناءة
بطيئة . وكانت الشمس المتألقة تدقيء بعذوبة . وكان مرسو ينظر الى ناقل
البريد الاحمر والاسود يخرج على مهل من المضيق البحري فيزيد من سرعته ثم
ينعطف نحو حاجز النور الذي كان يزيد عند التقاء السماء والبحر . ان في كل
رحيل ، بالنسبة للانسان الذي يشاهد رحيلاً ، عذوبة مرّة . قالت لوسيان :
— انهم محظوظون .

فقال باتريس « نعم » وكان يفكر « لا » ، او أنه كان على الاقل لا يحسدهم
على هذا الحظ . صحيح ان الاستنافات ، والرحلات ، والحيوات الجديدة كانت
بالنسبة اليه ايضاً ، تحتفظ بجاذبيتها ، ولكنه كان يعلم ان السعادة لا تتعلق بها الا في
ذهن الكسالى والعاجزين . كانت السعادة تفترض اختياراً ، وداخل هذا
الاختيار ارادة مدبّرة وواعية . كان يسمع صوت زغرو : « ليس بارادة
الرفض ، ولكن بارادة السعادة » .

كانت ذراعه تحيط لوسيان ، وفي يده كان يستريح نهد المرأة الدافئ اللدن .
في المساء نفسه ، وفي السيارة التي كانت تعيده الى شنوة ، كان مرسو يحسّ
أمام انتفاخات المياه والروابي المنبعثة فجأة ، بصمت كبير في ذاته . وكان في
تصنعه بعض الاستنفافات ، وفي وعيه لحياته الماضية ، قد حدد في ذاته ما
كان يريد وما كان لا يريد أن يكونه . وهذه الأيام من التشتت التي كانت قد
أخجلته كان يعتبرها خطرة ، ولكن ضرورية ، وكان من الممكن أن يفرق فيها
ويفوتّ إذ ذاك تبريره الوحيد . ولكن كان عليه أيضاً أن يتلام مع كل شيء .

وبين ضربتي كابح ، كان مرسو متشبهاً بهذه الحقيقة ، التي تُجبل والتي لا تقدر
بشئ في الوقت نفسه ، حقيقة أن السعادة الفريدة التي يبحث عنها كانت تجدد
شروطها في اليقظات الصباحية ، والمهامات المنتظمة ، وسلامة الصحة الواعية .
كان ينطلق مسرعاً جداً ، مصمماً على ان يستفيد من انطلاقته ليستقر في حياة
لن تتطلب منه فيما بعد أية جهود ، ليؤالف تنفسه مع الايقاع العميق للزمن
والحياة .

وفي صباح اليوم التالي نهض باكراً ونزل نحو البحر . كان البحر إذ ذاك في
تمام إشراقه ، وكان الصبح محملاً باختلاجات أجنحة وزرقرة عصافير . ولكن
الشمس كانت تلامس فقط انحناء الافق ، وعندما دخل مرسو في الماء الذي كان
بعد بلا لمعان ، خيل اليه أنه يسبح في ليل حائر ، حتى إذا ارتفعت الشمس ،
غطّس ذراعيه في مساكب من الذهب الاحمر المثلج . وفي هذه اللحظة عاد ،
ودخل بيته ، وأحس جسده خفيفاً ومستعداً ان يتلقى كل شيء . وفي الصباحات
التي تلت ، كان ينزل قبيل بزوغ الشمس .

وكانت هذه الحركة الأولى تتحكم في باقي نهاره . والحق ان هذه الاستحمامات
كانت تتبعه ، ولكنها كانت في الوقت نفسه ، بما كانت تخلقه له من ضعف ومن
طاقة ، تمنح يومه كله مذاقاً من الاستسلام والتعب السعيد . ومع ذلك ،

فقد كانت نهاراته تبدو له طويلة ما تزال . لم يكن قد حل وقته بعد من هيكمل عادات كان يتخذها كصوى ومعالم . لم يكن لديه ما يفعله ، وكان وقته يأخذ بالتالي كل امتداده . كانت كل دقيقة تجد قيمتها الأعجوبية ، ولكنه لم يكن يتعرف عليها بعد بهذه الصفة . وكما كانت الأيام في السفر ، تبدو لا نهاية لها ، بينما كان انقضاء الفترة في المكتب بين الاثنين والأثنين يتم بلحظة عين ، كذلك فانه ، وقد حُرم من ركائزه ، كان يحاول ان يستعيد لها في حياة لم يكن فيها مع ذلك ما يفعله . كان أحياناً يمسك ساعة وينظر إلى العقرب وهو يتنقل من رقم إلى آخر ، فيذهله ان تبدو له خمس دقائق وقتاً لا ينتهي . وبما لا شك فيه ان هذه الساعة قد فتحت له الطريق الشاق المعذب الذي يقود إلى الفن الأعظم : فنّ عدم القيام بشيء . وتعلم ان يتنزه . وعند العصر ، كان أحياناً يسير بمحاذاة الشاطيء حتى الخرائب على الطرف الآخر ، وكان يرقد عندها في الأبسنت ويده على حرارة حجر ، وكان يفتح عينيه وقلبه على عظمة هذه السماء المنخوقة بالحرارة ، تلك العظمة التي لم تكن لتحتمل . وكان يؤالف نبضات دمه مع نبضات الشمس العنيفة عند الساعة الثانية ، وإذا يكون غاطساً بين الروائح المتوحشة وموسيقى الحشرات الناعسة ، فانه ينظر إلى السماء تنتقل من الأبيض إلى الأزرق الصافي ، لتهوّي فيما بعد حتى اللون الأخضر وتفرغ عذوبتها وحنوها على الخرائب التي ما تزال حارة . إذ ذاك كان يعود باكراً وينام . وفي هذا السباق من شمس إلى شمس أخرى ، كانت أيامه تنتظم وفق ايقاع اصبح بطؤه وغرابته ضروريين بالنسبة له ضرورة مكتبه ومطعمه ونومه في الماضي . وفي الحالتين كلتيهما كان لا واعياً تقريباً . اما الآن فقد كان على الاقل ، في ساعات صفائه ، يحسّ ان الوقت كان ملكه ، وانه في هذه اللحظة القصيرة التي تمتد ما بين البحر الأحمر والبحر الأخضر ، كان شيء أبدي يتمثل له في كل ثانية .

وليس أكثر من السعادة الفؤيشرية ، لم يكن يستشف أبدية خارج المنحاء الأيام . كانت السعادة بشرية والأبدية يومية . وكان كل شيء يكمن في ان يعرف

الانسان أن يتواضع وان ينظم قلبه مع ايقاع الأيام ، بدلاً من أن يحني ايقاعها وفق المنحاة أملنا .

وكما أنه ينبغي معرفة التوقف في الفن ، وأن لحظة ما تأتي دائماً ينبغي فيها لمنحوتة ما ان لا تمس بعد ، وان رغبة في الغباء نخدم فنناً، بهذا الصدد ، أكثر من أشد وسائل التبصر إرهافاً ، كذلك لا بد من حد أدنى من الغباء لاستكمال السعادة للحياة ما .

من جهة أخرى ، كان مرسو يلعب البليار يوم الاحد ، مع بيريز . كان بيريز اكتع . وكانت ذراعه المبتورة مقطوعة فوق الكوع . وهكذا كان يلعب بطريقة غريبة ، فكان يكوّر جذعه ويسند جذعته على طرفها . وعندما كان مرسو يذهب ليصطاد صباحاً ، كان يعجب دائماً ببراعة الصياد الشيخ الذي كان يمسك بجذافه الايسر تحت ابطه ويقف منتصباً في المركب ، وجسمه مائل فيدفع احد المجذافين بصدرة والآخر بيده . وكان كلاهما متفاهمين الى أبعد حد . وكان بيريز يصنع الحبار بمرقة لاذعة ، فكان يطحنها بعصيره . وكان مرسو يتقاسم معه المرققة السوداء الملتهبة التي كان كلاهما يغمسها بالخبز في مقلاة مليئة بالشحم في مطبخ الصياد . ولم يكن بيريز ، من جهته ، يتكلم ابداً . وكان مرسو معترفاً له بقدرته على الصمت . وكان أحياناً ، عند الصباح ، بعد الحمام ، يراه وهو يلقي مركبه في البحر ، فكان يتقدم إذ ذاك قائلاً :

— هل اذهب معك يا بيريز ؟

وكان الآخر يقول : — اركب .

وإذ ذاك كانا يضعان المجذافين على مسكينين مختلفين ويجذفان معاً محاذرين (مرسو على الاقل) ان يربكا أقدامهما بصنانير الجبال . ثم كانا يصطادان ، وكان مرسو يراقب الخيوط اللامعة حتى سطح البحر ، متموجة وسوداء تحت

الماء . كانت الشمس تنكسر على الماء ، ألوفاً من الشظايا ، وكان مرسو يستنشق رائحة ثقيلة خانقة كانت تصدر من البحر كأنها تنفّس . وكان بيريز أحياناً يخرج سمكة صغيرة . فكان يرميها للحال قائلاً : « اذهبي الى أمك ! » وعند الحادية عشرة كانا يعودان ، فكان مرسو ، ويداه ملتصقتان بالقشور ، ووجهه منتفخ بالشمس ، يرجع الى منزله كما لو انه يدخل قبواً رطباً ، بينما كان بيريز يذهب ليهيئ طبقاً من السمك كانا يأكلانه معاً عند المساء . ويوماً بعد يوم ، كان مرسو يمضي في حياته كما كان يمضي في الانزلاق على الماء . ولما كان الانسان يتقدم بفضل مشاركة الذراعين والماء الذي يحمل وينقل ، فقد كان يكفيه بعض الحركات الرئيسية ، يد على جذع شجرة او ركض على شاطئ ، ليتأسك كاملاً وواعياً : هكذا كان يدرك حياة في حالتها النقية ، وكان يسترد نعيمًا لم يكن يوهب إلا لأكثر الحيوانات حرماناً من الذكاء أو أكثرها هبة منه . وعند هذا الحد الذي ينكر فيه الفكر الفكر ، كان يلامس حقيقته ومعها مجده وحبّه الأقيسين .

وبفضل برنار ايضاً ، كان يمتزج بحياة القرية . لقد كان مضطراً الى استدعائه بسبب وعكة بسيطة ، ثم تقابلا فيما بعد وغالباً بسرور . كان برنار صموتاً ، ولكن صمته كان مصحوباً بنوع من الفكر المرير كان يضفي اشعاعات في نظارتيه المقشّرتين . كان قد مارس مهنته طويلاً في الهند الصينية ثم انسحب في الأربعين الى هذا الركن من الجزائر . وهو منذ بضع سنين يمضي فيها حياة هادئة مع امرأته ، وهي هندية صينية شبه خرساء ، ذات شعر مرفوع على شكل كعبيكة وثوب عصري . وكان برنار ، بفضل قدرته على التسامح ، يتألف مع جميع الاوساط . وبهذا كان يحب القرية كلها وكان محبوباً منها . وكان يرافق مرسو اليها .

كان مرسو يعرف جيداً مدير الفندق ، وهو صادق قديم كان يغني عند مكتبه ، وبين مقطعين من « التوسكا » كان يعد امرأته بضربة . وقد طلب من باتريس ان يشارك مع برنار في لجنة الاعياد .

وفي أيام الأعياد ، ١٤ تموز أو غيرها ، كانا يتنزهان وعلى الذراع ساعده ذات ثلاثة ألوان أو كانا يتناقشان مع بقية الاعضاء ، حول طاولة من الكتان الأخضر لزجة بالمقبلات السكرية ، إذا كانت منصة الموسيقيين محاطة بشجر المضاض أو سعف النخل. بل لقد أرادوا أن يحروه يوماً إلى صراع انتخابي، ولكن مرسو كان قد أتيح له أن يعرف المختار ، وكان « يشرف على مصائر بلده » (كما كان يقول) منذ عشر سنين. وشبه الخلود هذا كان يحذو به إلى أن يظن نفسه نابليون بونابرت. كان كراماً قد أوى حديثاً، فبنى لنفسه بيتاً على الطراز اليوناني . وكان قد دعا إليه مرسو ، وكان يتألف من طابق أرضي يعالوه طابق . ولكن المختار لم يكن يتراجع أمام أية تضحية ، فكان أن زوده بمصعد . وقد جعل مرسو وبرنار يحربانه ، فقال برنار بهدوء : « انه ينزلني جيداً » . ومنذ ذلك اليوم ، أكن مرسو إعجاباً عميقاً للمختار. وكان هو وبرنار يستعملان تأثيرهما بكامله لكي يبقياه في الوظيفة التي كان يستأهلها بفضل كثير من المزاي .

وفي الربيع كانت القرية ذات السقوف الحمراء المتقاربة ، بين الجبل والبحر ، تعود فتختنق بالزهور والورود والجنابات المعترشة وبطنين الحشرات. وفي ساعة القيلولة ، كان مرسو يدلف إلى سطحته وينظر إلى القرية تنام وترسل بخارها تحت الأشعة الفائضة . وكان تاريخ القرية يكمن في الخصام بين موراليس وبنغيش ، وهما معمران إسبانيان ثريان ، كانت سلسلة من المضاربات قد حولتهما إلى مليونيرين . ومنذ تلك اللحظة ، كانت حمى العظمة قد امتلكتها . فعندما كان أحدهما يشتري سيارة ، كان ينتقي أغلاماً ثمناء . ولكن الآخر الذي كان يشتري مثلها كان يضع عليها مقابض من الفضة. وكان العبقرى في هذه الحالة هو موراليس الذي كانوا يطلقون عليه لقب «ملك إسبانيا» ذلك انه في كل شيء ، كان قد انتصر على بنغيش الذي كان يفتقر إلى الخيال .

ففي اليوم الذي اكتب فيه بنغيس ، اثناء الحرب ، بعدة مئات من آلاف الفرنكات للقرض الوطني ، صرح موراليس بقوله: « أنا أفعل احسن ، انني اعطي ابني » . وجند ابنه الذي كان ما يزال صغيراً ... وفي عام ١٩٢٥ ، كان بنغيس قد وصل من مدينة الجزائر بسيارة سباق فخمة من طراز « بوغاتي » . وبعد خمسة عشر يوماً ، كان موراليس قد بنى لنفسه مرأباً واشترى طائرة « كودرون » وكانت هذه الطائرة ما تزال ترقد في مرأبها .

يوم الاحد فقط كانوا يعرضونها امام الزوّار . وعندما كان بنغيس يتحدث عن موراليس كان يقول : « هذا العاري - القدمين » وكان موراليس يقول عن بنغيس : « قمينة الجير هذا » .

واصطحب برنار مرسو الى بيت موراليس ، فاستقبلها هذا في المزرعة الكبيرة المليئة بالزناوير وبروائح العنب ، استقبالاً مطبوعاً بكل دلائل الاحترام ، ولكنه كان يلبس حذاء الرياضة وقميصاً قصير الاكمام ، لأنه لم يكن يستطيع تحمل السترة والحذاءين . وقد عرض عليها الطائرة ، والسيارات ، ومدالية الابن المؤطرة والمعروضة في الصالون . واخذ موراليس يشرح لمرسو ضرورة إبعاد الأجانب عن الجزائر الفرنسية (كان هو متجنساً « اما بنغيس ذاك ، مثلاً ») ثم قادهما الى اكتشاف جديد - فدخلوا حقلاً واسعاً للعنب اقيمت في وسطه مستديرة . وفي هذه المستديرة صُفّت طقم من طراز لويس الخامس عشر ، صنع بأفخر الخشب والقماش . وهكذا كان موراليس يستطيع ان يستقبل ضيوفه في أراضيه . وقد أجاب على مرسو الذي كان يستعلم بأدب عما كان يحدث في أوقات المطر ، اجاب مورالس من دون ان يهتز من فوق سيارته : « انني أستبدله » . وكانت العودات مع برنار تقضى إذ ذاك في تمييز الثري الكبير من الشاعر . فقد كان موراليس ، في نظر برنار ، شاعراً . وكان مرسو يفكر انه كان جديراً به ان يكون امبراطوراً رومانياً رائعاً في عهد الانحطاط .

وبعد فترة من هذا الوقت ، أتت لوسيان لتقضي بضعة ايام في الشنوة ثم

رحلت . وذات احد صباحا ، أتت كلير وروز وكاترين يرددن الزيارة لموسو كما كن قد وعدنه . ولكن باتريس كان الآن بعيداً جداً عن الحالة الفكرية التي كانت قد دفعته الى مدينة الجزائر في الأيام الاولى لعزلته . ومع ذلك فقد سعد لرؤيتهم من جديد . وقد ذهب لاصطحبهم مع برنار عند موقف الباص الكناري الكبير الذي كان يقوم بالخدمة . كان اليوم رائعاً ، والقرية مكتظة بعربات القصابين المتجولين الجميلة الحمراء وبالورود الكثيفة والناس المرتدين الوانا زاهية . وقد جلسوا لحظة في مقهى ، بنساء على طلب كاترين . كانت تتأمل باعجاب هذا الالقي وهذه الحياة ، وخلف الحائط الذي كانت تستند اليه كانت تحزر وجود البحر . وفي لحظة الذهاب انفجرت موسيقى مذهلة في شارع قريب جداً . كان ، بلا شك ، «مارش التوريادور» في «كارمن» ، ولكنه كان من الصخب والحيوية بحيث انه كان يحول دون ان تحتفظ الآلات بدورها . قال برنار : «إنه مجتمع الرياضة» . ومع ذلك فقد لوحظ انبثاق عشرين موسيقيا مجهولاً كانوا لا يكفون عن النفخ في الآلات الهوائية المختلفة ، ثم انبثق من خلفهم موراليس ، على رأسه قبعة قش مرتدة الى خلف وموضوعة على منديل ، فيما كان يترطب بمروحة دعائية . كان قد استأجر هؤلاء الموسيقيين من المدينة لأنه ، كما فسر ذلك فيما بعد ، بهذه الأزمة تبدو الحياة حزينة اكثر مما ينبغي . وقد جلس ورتب من حوله الموسيقيين الذين أنهموا لحن سيرم . كان المقهى مكتظا بالجمهور . إذ ذاك نهض موراليس ، وبحركة دائرية قال بوقار : «بناء على طلبي ، ستعزف الفرقة الموسيقية من جديد «توريادور» .

وكانت الحمقاوات الصغيرات ، عند ذهابهن ، يختنقن من الضحك . ولكن حين وصلن الى البيت ، في ظل الغرف التي كانت تحيل البياض المتألق للجدران المليئة بشمس الحديقة اكثر حساسية ، وجدن من جديد صمتا وتجاوبا عميقا عبر عن ذاته ، عند كاترين ، بالرغبة في أخذ حمام شمسي على السطحة . عند ذلك أعاد موسو برنار . وكانت هذه هي المرة الثانية التي كان برنار يطلع فيها

على شيء من حياة مرسو . ولم يسبق لهما قط ان تكاشفا بشيء ، إذ كان مرسو يعني أن برنار لم يكن سعيداً ، وكان برنار حائراً بعض الشيء أمام حياة مرسو . وقد افترقا من غير ان يقولوا كلمة . واتفق مرسو مع صديقاته على الذهاب في رحلة صباح الغد الباكر . كانت الشنوة عالية جداً ، وكانت صعبة التسلق . وقد كان ثمة يوم جميل من التعب والشمس ينتظرهم .

في الصباح الباكر ، تسلقوا المنحدرات الاولى القاسية . كانت روز وكلير تتقدمان ، وكان باتريس يقفل المسيرة مع كاترين . كانوا صامتين . وكانوا يرتفعون شيئاً فشيئاً فوق البحر الذي كان ما يزال أبيض بين غيوم الصباح . وكان باتريس يلتزم الصمت ايضاً ؛ مندجماً كلياً بالجبل ذي القمة الملوطة المشعث بالسورنجان ، وبالينابيع المثلوجة ، وبالظل والشمس ، وبجسده الذي كان يوافق ثم يرفض . كانوا يلجون جهد السير المكثف ، ونسيم الصباح في رئاتهم كحديد محمي او موسى محددة ، مالحين انفسهم كلياً لهذه المتابعة ولهذا التفوق على الذات اللذين كانا يجهدان لينتصرا على المنحدر . واحست روز وكلير بالتعب ، فأبطأتا سيرهما . فتقدمت كاترين ومرسو ، وما لبثا ان غابا عن نظرهما .

قال باتريس : « هل كل شيء على ما يرام ؟ »

قالت : « نعم . هذا جميل جداً » .

كانت الشمس ترتفع في السماء ، ومعها صرير حشرات كان يتفاقم مع الحرارة . وفيما بعد خلع باتريس قميصه ، وتابع طريقه عاري الصدر . كان العرق يسيل على كتفيه ، حيث كانت الشمس قد شالت قشارة الجلد . وسلكا طريقاً صغيرة كانت تبدو محاذية جنب الجبل . وكانت الاعشاب التي كانا يسحقانها اكثر نداوة . وما لبث ان استقبلها صوت ينابيع وتدفق نداوة وظلال . ورش أحدهما الماء على الآخر ، وشربا قليلاً ، ثم تمددت كاترين على العشب ، بينما كان باتريس ، وشعره مسود من المساء ومشبوك على جبينه يخفض عينيه أمام المشهد المغطى بالحرايب ، وبالطرقات اللامعة وبتألقات الشمس ، ثم

جلس قرب كاترين .

قالت كاترين :

— مرسو ، ما دعنا وحدنا ، قل لي ان كنت سعيداً ؟

قال مرسو :

— انظري .

كانت الطريق تهتز في الشمس ، وكانت طائفة كبيرة من البكتيريات المتعددة
الألوان تصعد اليها . وكان باتريس يتسم ويداعب ذراعيه .

— أردت فقط ان أسألك . وبالتأكيد ، فانك لن تجيب إن كان ذلك يزعجك .
(وترددت) هل تحب زوجتك ؟

ابتسم مرسو :

— ليس هذا من الضروري .

وأمسك بكتف كاترين ، ورش بالماء وجهها وهو يحني رأسه وأضاف يقول :

— الخطأ ، يا كاترين الصغيرة ، هو الاعتقاد بوجود الاختيار ، بوجود عمل
ما نريده ، بأن هناك شروطاً للسعادة . ان ما هم فقط ، هو إرادة السعادة ،
نوع من الوعي الهائل الحاضر ابداً . أما الباقي ، النساء ، الأعمال الفنية أو
النجاحات الدنيوية ، فليس إلا ذرائع . انه شبكة تنتظر تطريزاتنا .

قالت كاترين وعيناها ملبتتان بالشمس :

— نعم .

— ان ما يهمني انما هي صفة معينة للسعادة . انني لا استطيع ان أتذوق
السعادة إلا في المواجهة العنيدة العنيفة التي تقوم بها مع نقبضها . تسأليني ان
كنت سعيداً ؟ كاترين ! انك تعرفين القول المأثور : « لو كان علي أن أعيد

حياتي . فاني سأعيدها كما هي . وبالطبع ، لا يمكنك ان تعرفي ما يعنيه ذلك .
قالت كاترين : لا .

— كيف أفتر لك ذلك ، يا صغيرتي . لئن كنت سعيداً ، فذلك
بفضل احساسي بالخطأ . لقد كنت بحاجة الى الرحيل والى كسب هذه الوحدة
التي استطعت فيها ان اواجه في نفسي ما كان ينبغي مواجهته ، ما كان شمساً
وما كان دموعاً .. اجل ، انني ، بشرياً ، سعيد .

ووصلت روز وكليز ، فاستأنف الجميع السير . كان الطريق ما يزال يحاذي
الجبل تاركاً إياهم في منطقة نباتية غزيرة . وكانت الطرق ما تزال محاطة
بشجر الصبار والزيتون والعناب . وكانوا يلتقون بعرب يركبون حميراً . ثم
صعدوا . كانت الشمس تصفع الآن بضربات محدمة كل حجر في الطريق . وعند
الظهر ، كانوا مسحوقين بالحرارة ، سكارى من العطور والتعب ، فرموا أكياسهم
وتخلوا عن بلوغ القمة . لقد كانت المنحدرات صخرية ومليئة بالصوان .
وظللتهم شجرة سديان ضامرة بظلها المستدير . وسحبوا المؤن من الأكياس
وأكلوا . كان الجبل كله يرتج تحت الأشعة والريزان ؛ وكانت الحرارة تصعد
فتحاصرهم تحت سديانتهم . وانقلب باتريس على الأرض ملتصق الصدر
بالاحجار فتشنق عبيراً لاهاً . وكان يتلقى في بطنه ضربات الجبل الخرساء
الذي كان يبدو في حالة عمل . وانتهت رقابة تلك الضربات ، وغناء الحشرات
المصم بين الاحجار الحارة والعطور البرية — انتهت بان أنامته .

عندما استيقظ كان مكسواً بالعرق ، متيبساً . وكانت الساعة تقارب
الثالثة ، وكانت الفتيات قد اختفين . وما لبثت ضحكات وصيحات ان انبأت
عنهن . وكانت الحرارة قد خفت . كان ينبغي الهبوط من جديد . وفي تلك اللحظة
بالذات ، ولأول مرة ، في منتصف الطريق ، أصيب مرسو باغواء . وحين نهض ، لمح
البحر شديد الزرقة من خلال ثلاثة وجوه قلقة . واستأنفوا الهبوط على مهل ،
وعند المنحدرات الاخيرة ، طلب مرسو استراحة . كان البحر يخضر مع السماء ،

وكانت عذوبة تامة تصعد من الأفق وعلى الروابي التي كانت تمتد الشنوه حول
الجون الصغير ، كانت شجرات السرو تسود على مهل . كانوا جميعاً صامتين ،
ومع ذلك قالت كلير :

— يبدو عليك التعب .

— بلا شك . ابتها الفتاة الصغيرة .

— إسمع . ان الأمر لا يعني . ولكن هذه المنطقة لا تناسبك في شيء .
إنها مفرطة القرب من البحر ، مفرطة الرطوبة . فلماذا لا تذهب لتعيش في
فرنسا ، في الجبال ؟

— هذه النقطة لا تفيدني شيئاً ، يا كلير ، ولكنني سعيد فيها . انني احس
بوقاق مع نفسي .

— انما ادعوك الى هذا لكي تستطيع ان تكون كذلك كلياً ولمدة اطول .

— لا يعيش المرء سعيداً لمدة أقصر او أطول . انه يكون سعيداً ، هذا كل
شيء . والموت لا يمنع شيئاً . انه عارض طارئ للسعادة في هذه الحالة .

وسكنوا جميعاً . ولكن روز قالت بعد فترة :

— لست مقتنعة .

وعادوا الى البيت على مهل في المساء الهابط .

وتكفّلت كاترين باستدعاء برنار . وكان مرسو في غرفته ، ومن فوق
ظلّ مربعات البيت اللامع ، كان يرى بقعة الدرايزون البيضاء ، والبحر كسريط
من القماش الداكن المتموج يعلوه الليل الاكثر إضاءة ، وان كان بلا نجوم . وكان
يحب الضعف . ولكن ضعفه ، بفضل أعجوبة خيرة ، كان يخفف من همته ويجعله صافياً .
وحين طرق برنار الباب ، أحس مرسو بأنه سيقول له كل شيء ليس بسبب

ان سرّه يثقل عليه . فانه لم يكن في ذلك أي سر . فلئن كان قد كتم سره حتى الآن ، فانما كان ذلك بالقدر الذي يحفظ به المرء افكاره في بعض الاوساط لأنه يعلم انها ستصدم الافكار المسبقة والغباوة . ولكنه اليوم ، بالرغم من كل تعب جسده وصدقه العميق ، فان مرسو ، شأنه في ذلك شأن الفنان بعد ان يكون قد داعب وبنى لفترة طويلة عمله واحس بضرورة اخراجه الى النور والتواصل اخيراً مع البشر ، ان مرسو كان يحس أن عليه ان يتكلم . ومن غير ان يكون متأكداً من انه سيفعل ذلك ، كان ينتظر برنار بنفاد صبر .

ومن غرف الطابق الارضي تصاعدت ضحكتان نديتان جعلتاها يبتسم .
في هذه اللحظة ، دخل برنار ، فقال :

— ما المسألة ؟

قال مرسو : كما ترى .

وضع الساعة على صدره . لم يكن باستطاعته ان يقول شيئاً . ولكنه كان يودّ ان يجري له تصويراً على الاشعة ، اذا كان يقوى على ذلك .

وأجاب مرسو : — فيما بعد .

صمت برنار وجلس على حافة كوة النافذة ، ثم قال :

— انني لا احب ان اكون مريضاً ، انا . انني اعرف ما يعنيه ذلك . ليس هناك ما هو قبيح ومُحطّ اكثر من المرض .

كان مرسو غير مكترث . وقد نهض من مقعده ، وقدم لفائف لبرنار فاشعل واحدة منها وهو يضحك :

— هل استطيع ان اطرح عليك سؤالاً يا برنار ؟

— نعم .

— انك لا تأخذ حمامات بحر قط ، فلماذا إذن كنت قد اخترت هذا المكان لتعتزل ؟

— آه ! إنني لا أدري تماماً . كان ذلك منذ زمن بعيد .
وبعد فترة أضاف :

— ثم انني تصرفت دائماً بدافع من ضغينة . اما الآن فقد تحسنت الأمور .
في السابق ، كنت أريد ان اكون سعيداً ، وان اعمل ما ينبغي عمله ، ان استقر
مثلاً في بلد يروق لي . ولكن الاستباق العاطفي هو دائماً زائف . وإذن ، فيجب
ان نعيش كأسهل ما نستطيع ان نعيش ، وألا نقتسر الأمور . ان ذلك فظ بعض
الشيء . ولكنه ايضاً وجهة نظر اجل فتيات العالم . في الهند الصينية ، مضيت
الى أبعد الحدود . أما هنا فأنني أجتر . ببساطة .

قال مرسو ، من غير ان يتوقف عن التدخين ، وهو غاطس في مقعده ينظر
الى السقف :

— نعم ، ولكنني لست متأكداً من ان كل استباق عاطفي هو زائف . ان
هذه الاستباقات هي فقط ضالة . وعلى كل حال ، فان التجارب الوحيدة التي
تهمنى هي تلك التي يكون فيها كل شيء بالضبط كما نأمل ان يكون .
وابتسم برنارد :

— اجل ، مصير وفق المقاييس .

قال مرسو ، من غير ان يتحرك :

— ان مصير انسان ما ، هو دائماً أخذ إذا استطاع ان يتزوج به بشفف .
ومصير أخذ ، بالنسبة للبعض ، هو دائماً مصير وفق مقاييس .

قال برنار : « نعم » . ونهض بجهد ونظر لحظة الى الليل ، وظهره متجه
بعض الشيء نحو مرسو .

ومن غير ان ينظر اليه ، استأنف يقول :

— انك معى في هذا البلد الرجل الوحيد الذي يعيش بلا رفقة . اننى لا اتحدث عن زوجتك وعن اصدقائك . فأنا اعرف جيداً انهم أحداث عرضية ، ومع ذلك ، فيبدو عليك انك تحب الحياة اكثر منى (واستدار اليه) ذاك ان حب الحياة ، بالنسبة لى ، ليس أخذ الحمامات ، بل ان يعيش المرء بطريقة مدوّخة ، جائعة . نساء ، ومغامرات ، وبلاد . ان تعمل ، أن تخضع شيئاً ما . حياة ملتبهة ومدهشة . أقصد ... إفهمنى ... (كان يبدو وكأنه خجل من ان يكون قد تحمس) اننى اكثر حبا للحياة من ان اشفى غلتي من الطبيعة .

كان برنار يلتقط مساعه ويفلق حقيبة عدته . فقال له مرسو :

— إنك في الواقع مثالي .

لقد كان لديه هو الشعور بان كل شيء كان محصوراً في هذه اللحظة التي تمتد من الولادة حتى الموت ، وان كل شيء يحكم عليه ويكرّس هنا .

قال برنار بنوع من الحزن :

— الواقع أن نقيض المثالي هو ، في غالب الاحيان ، رجل بلا حب .

قال مرسو وهو يمدّ اليه يده :

— لا تعتقد ذلك .

وشد برنار عليها فطرة طويلة ، ثم قال مبتسماً :

— إذا اردنا التفكير مثلك ، فلن يكون هناك إلا رجال يعيشون على يأس كبير أو أمل كبير .

— ربما على الاثنين .

— أوه ، اننى لا أطرح سؤالاً !

قال مرسو بجد :

— انني اعلم .

ولكن حين بلغ برنار الباب ، ناداه مرسو ، مدفوعاً باندفاع لاواعٍ :

قال الطبيب وهو يلتفت : « نعم » .

— هل انت قادر على ان تكن احتقاراً لانسان ؟

— أظن .

— بأية شروط؟

وفكر الآخر :

— يبدو لي ان ذلك بسيط بما فيه الكفاية . في جميع الحالات التي يكون فيها

المرء موفقاً بالمصلحة او بحب المال .

قال مرسو :

— هذا بسيط ، بالفعل . مساء الخير يا برنار .

— مساء الخير .

وإذ بقي مرسو وحيداً ، أخذ يفكر . الى الحد الذي بلغه ، فان احتقار انسان كان يتركه لا مبالياً . ولكنه كان يجد لدى برنار اصداء عميقة كانت تقربه منه . وكان يبدو له غير محتمل ان يدين قسم منه القسم الآخر . أترأه كان قد تصرف بدافع المصلحة ؟ كان قد وعى هذه الحقيقة الاساسية واللا أخلاقية بأن المال هو احدى الوسائل الأضمن والأسرع لكي يكتسب كرامته . وكان قد توصل الى طرد المرارة التي تستولي على كل نفس كريمة النسب وهي تتأمل ما في ولادة مصير جميل وشروط نموه من ظلم ونذالة . وتلك اللعنة القذرة المثيرة التي تجعل الفقراء يُنهون في البؤس الحياة التي بدأوها في البؤس ، كان قد أبعداها وهو يحارب المال بالمال ، ومع الكراهية الكراهية . ومن هذا الصراع بين وحش ووحش ، كان يتفق أحياناً ان يخرج الملاك ، منغمساً باكملة في سعادة جوانحه ومجده ، تحت نفحة البحر الدافئة . كان يبقى فقط انه لم يكن قد قال شيئاً لبرنار وان

عمله سيظل بعد الآن مرأ .

في عصر اليوم التالي ، حوالي الساعة الخامسة ، ذهبت الصديقات . وفي لحظة الصعود الى الاوتوبيس ، التفتت كاترين الى البحر وقالت :
— الى اللقاء ، ايها الشاطئ .

وبعد لحظة ، كانت ثلاثة وجوه ضاحكة تنظر الى مرسو عبر زجاج الداخل . وكحشرة ضخمة مذهبة ، كان الأوتوبيس الاصفر يختفي في الأشعة . وبالرغم من ان السماء كانت صافية ، فقد كانت خانقة بعض الشيء . وإذا كان مرسو وحيداً في الطريق كان يحس في اعماق قلبه مزيجاً من الخلاص والحزن . اليوم فقط كانت وحدته تصبح حقيقية لأنه اليوم فقط كان يحس نفسه مرتبطاً بها . وان يكون قد قبلها ، وان يدرك انه بعد الآن سيد ايامه القادمة ، فان ذلك كان يملأه بالكآبة التي تلتصق بكل عظمة .

وبدلاً من ان يسلك الطريق الرئيسية ، عاد بين شجرات الخرنوب والزيتون في ممر صغير منحرف كان يمر عند اسفل الجبل وينتهي خلف بيته . وقد سحق بقدمه بعض حبات الزيتون ولاحظ ان الطريق كان باكملة مخططاً بالبقع السوداء . في آخر الصيف ، كانت شجرات الخرنوب تضيء رائحة حب على الجزائر كلها . وفي المساء او بعد المطر ، كانت الارض كلها تبدو وكأنها ، بعد ان تكون قد منحت نفسها للشمس ، تريح بطنها المبتل ببذار عطرها كعطر اللوز المر . وطوال النهار ، كانت رائحتها قد هبطت من الشجرات الكبيرة ، ثقيلة وخانقة . وفي هذا الممر الصغير ، مع المساء ، وتأوه التربة الرخي ، كانت الرائحة تفدو خفيفة ، لا يكاد انف باتريس يحسها كعشقة تخرج معها في الطرقات بعد عصر خائق ، فتتنظر اليك ، وكتفها لصق كتفك ، وسط الاضواء والناس .

امام رائحة الحب هذه وثمراتها المسحوقة العطرة ، أدرك مرسو أن الموسم ينتهي ، وان شتاء كبيراً سيطل . كان ناضجاً لانتظاره . ومن هذا

الممر ، لم يكن البحر يرى ، ولكن كان باستطاعة المرء ان يلاحظ عند قمة
الجبل غيوماً خفيفة حمرة كانت تبشر بالمساء . وعلى الارض ، كانت بقع من
الاشعة تشحب بين ظلال الاغصان .

وتنشق مرسو بعنف الرائحة المرة العطرة التي كانت تكرر في ذلك المساء
عرسها مع التربة . وهذا المساء الذي كان يهبط على العالم ، في الطريق بين
شجرات الزيتون والمصصا ، على الكروم والتربة الحمراء ، قرب البحر الذي
كان يهدر يهدوء ، هذا المساء كان يدخل فيه كالمسد . كثير من الامسيات
الشبيهة كانت في نفسه كوعد بالسعادة . وأن يحس بهذه الأمسية كسعادة ،
ذلك ما جعله يقيس الطريق الذي كان قد اجتازه من الأمل حتى النصر . وفي
براءة قلبه ، كان يتقبل هذه السماء الخضراء وهذه الارض التي يبللها الحب ،
بارتعاشه الهوس والشهوة نفسها التي تملكته حين قتل زغرو في براءة قلبه .

الفصل الخامس

في كانون الاول ، أزهرت شجرات اللوز . وفي آذار ، اكتست شجرات الإجاص والدراق والتفاح بالازهار . وفي الشهر الذي تلا ، ربت الينابيع ربواً غير ملحوظ ، ثم عادت الى منسوب طبيعي . وفي أوائل أيار قطعوا الحشيش ، وفي الايام الاخيرة ، حصدوا الشوفان والشعير . وكانت اشجار المشمش قد انتفخت بالصيف . وفي حزيران ، ظهر الإجاص الباكوري مع الحصاد الكبير . وكانت الينابيع قد بدأت تشح والحرارة تتفاقم . ولكن دم الارض ، الناضب في هذا الجانب ، كان يزهر جانب آخر في القطن ويسكّر أوائل الاعناب . وهبت ريح عنيفة لاهبة جففت الاراضي وأشعلت حرائق في كل مكان تقريباً . ثم فجأة ، انقلبت السنة . وبسرعة انتهى القطاف . وكنس المطر الارض بفيضانات كبيرة من أيلول حتى تشرين الثاني . ومعها ، وما كادت اعمال الصيف تنتهي حتى بدأت حقول القمح وأوان البذار الاولى ، بينما كانت الينابيع تتضخم فجأة وتتفجر سيولاً . وفي آخر السنة كان القمح قد بدأ ينبت في بعض الاراضي ، بينما لم تكد أراض أخرى تنتهي من استقبال الحرارة . وبعد ذلك بقليل ، غدت شجرات اللوز من جديد بيضاء في السماء الثلجة الزرقاء . وتتابع السنة الجديدة في الارض والسماء . وغرس الدخان ، وحرثت الكرمة وكبرتت ، وطعمت الاشجار . وفي الشهر نفسه ، نضج الزعرور ، ومن جديد ، أقبل أوان حصاد الكلأ ، وحصاد الصيف . وفي منتصف السنة ، كانت الثمار التارّة التي تلتصق بالاصابع تغطي الطاولات : التين ، الدراق

والاجاص التي تؤكل بشراهة بين دراسين . وفي موسم القطاف التالي ، اكتست السماء ، فمرت أمراب سوداء صامتة من الزرايزر والسمن ، قادمة من الشمال . كان مرورها يعني ان الزيتون قد بدأ ينضج . وحوش فعلاً بعد فترة من مرورها ، وفي الارض اللزجة نبت القمع مرة ثانية . ومرت رفوف ضخمة من الفيوم قادمة هي أيضاً من الشمال على البحر وعلى الارض ، فمسحت عن الماء زبدته وتحركته نقياً مثلجاً تحت سماء من البلور . ولعدة أيام ، حصل في المساء برق بعيد صامت . وبدأت أيام البرد الاولى .

في هذا التاريخ تقريباً ، لزم مرسو الفراش لأول مرة . فقد حبسته فوبات داء الجنب وألزمته غرفته شهراً . وعندما شفي ، كانت أواخر منحدرات شتوة قد اكتست بالاشجار المزهرة التي كانت تنحدر نحو البحر . لم يسبق قط لأي ربيع ان وجده حساساً إلى هذا الحد ، وأول ليلة من فقاوته ، مشى طويلاً عبر الاراضي حتى الرابية المليئة بالحرائب حيث كانت ترقد تيبازا . وفي صمت مسكون بأصوات السماء الحريرية ، كان الليل اشبه بحليب على العالم . وكان مرسو يعيش على الشاطيء الصخري ، مشبعاً بتأمل رزين لهذا الليل . وكان البحر ، دونة قليلاً ، يهدر يهدوء . وكان يرى مليئاً بالقمر والمخل ، طرياً ، أملس كأنه وحش . في هذه الساعة التي كانت تبدو له فيها حياته بعيدة جداً ، بدا المرسو وهو وحيد ، غير مكترث بشيء ولا بنفسه ، انه كان قد بلغ أخيراً ما كان يبحث عنه ، وان هذا السلام الذي كان يملأه كان قد ولد من استسلامه الصبور الذي كان قد تابعه وبلغه ، بمساعدة هذا العالم الحار الذي كان ينكره بلا غضب . كان يعيش بخفة ، وكان وقع خطاه يبدو له غريباً ، مألوفاً بلا شك ، ولكن كحفيف الحيوانات بين ادغال الزعرور ، وايقاعات البحر أو خفقات الليل في اعماق السماء . وكان كذلك يشعر بحسده ، ولكن بالاحساس الخارجي ذاته الذي يحس به النفحة الحارة لهذا الليل الربيعي ورائحة الملح والعفن التي كانت تصعد من البحر . كانت جولاته في العالم ، واصراره

على تطلب السعادة ، وجرح زغرو المريع ، الملىء بالمنخ والعظم ، والساعات العذبة المحترسة في « البيت امام العالم » ، وامراته ، وآماله وأهله ، كل ذلك كان ماثلاً امامه ، ولكن كقصة مفضلة بين جميع القصص ، من غير سبب مقبول ، غريبة ومألوفة بطريقة خفية في آن واحد ، كتاب أثير يدغدغ ويؤكد أعمق ما في القلب ، ولكنه كتاب كتبه آخر . ولأول مرة ، لم يكن يحس في نفسه أية حقيقة أخرى غير حقيقة هوس المغامرة ، رغبة نسغ ، غريزة ذكية ودية لقراءة العالم .

وبلا غضب ولا حقد ، لم يكن يعرف ندماً . كان جالساً على صخرة يحس وجهها المجدور تحت أصابعه ، وهو ينظر إلى البحر ينتفخ بصمت تحت ضوء القمر . كان يفكر بوجه لوسيان الذي كان قد داعبه وبدفء ثقتيها . وعلى سطح الماء السوي ، كان القمر ، الشبيه بالزيت ، يضع ابتسامات طويلة فائقة . ولا بد أن الماء كان دافئاً كهم ، رخياً مستعداً للانغمار تحت جسم انسان . وإذ ذاك ، أحس مرسو وهو ما يزال جالساً ، كم كانت السعادة قريبة من الدموع ، مغمورة كليّة في هذا الهوس الصامت الذي يُنسج فيه الامل واليأس ممزوجين من حياة انسان . كان مرسو واعياً ومع ذلك غريباً ، منهوشاً بالهوس ومتجرداً ، فكان يدرك ان حياته نفسها ومصيره كانا ينتهيان هنا ، وان كل جهده سيبذل بعد الآن ليتدبر أمره مع هذه السعادة وليواجه حقيقتها المرعبة .

كان ينبغي له أن يغطس في البحر الحار ، وان يتيه ليجد نفسه فائقة ، وان يسمح في القمر والدفء لكي يصمت ما كان في داخله باقياً من الماضي ولكي يولد لحن سعادته العميق . وتعرّى ، ونزل بضعة صخور ودخل في البحر . كان حاراً كجسد ، وكان ينزل على طول ذراعه ، ويلتصق بساقيه بضمة لا تحتجز وهي ذلك مع حاضرة أبداً . وكان هو يسبح بانتظام ويحس ببعضلات ظهره توقع حركته . وكلما رفع ذراعه ، كان يرمي على البحر الشاسع

قطرات فضة متراشقة ، ممثلة ، أمام السماء الخرساء الحية ، البذور الرائعة لحصاد من السعادة . ثم كانت الذراع تغطس من جديد ، كسكة حرائة قوية ، فتفلق المياه وتشققها الى نصفين لكي تتخذ فيها سنداً جديداً واملاً أكثر شباباً . وخلفه كان ينبعث من تخبّطات قدميه فوران زبد ، وفي الوقت نفسه صوت ماء هادر ، صاف صفاء غريباً في الوحدة وصمت الليل . ولإحساسه بايقاعه وقوته ، كان نوع من الحماسة يكتسحه ، فيتقدم بمزيد من السرعة ، وفيما بعد وجد نفسه بعيداً عن الشواطئ ، وحيداً في قلب الليل والعالم . وفكر فجأة بالأعماق التي تمتد تحت قدميه فأوقف حركته . كل ما قد كان تحته كان يجذبه كأنه وجه عالم مجهول ، امتداد هذا الليل الذي كان يعيده لذاته ، وقلب حياة من ماء وملح لم تكتشف بعد . وراوده إغراء أبعد في الحال ، وكان متعباً جسدياً تعباً رائعاً ، فرجع نحو الضفة . وفي تلك اللحظة دخل فجأة في تيار مثلج فاضطر الى التوقف ، مصطك الاسنان ، مضطرب الحركات . وهذه المفاجأة التي واجهه بها البحر تركته دهشاً مذهولاً ، وكان ذلك الثلج ينفذ إلى اطرافه فيحرقه كحطب إله بحماس صاف ومهووس كان يخلفه بلا قوة . وعاد بمشقة اكبر ، وعلى الضفة ، بمواجهة السماء والبحر ، ارتدى ملابسه وأسنانه تصطك وهو يضحك من السعادة .

حين عاد إلى منزله ، تملكه انزعاج . ومن المر الضيق الذي كان يصعد من البحر نحو دارته ، كان يستطيع أن يرى الرعن الصخري الذي كان يقابله ، وجذوع الأعمدة والخرائب الملساء . وفجأة ، انقلب المشهد ووجد نفسه مستنداً إلى صخرة ، نصف منقلب على دخل من شجر الزعرور كانت أوراقه المسحوقة تترك رائحتها تفوح . وعاد بمشقة الى الدارة . كان جسده الذي كان قد حمله الساعة إلى آخر حدود الفرح يُغرقه الآن في ضيق كان يأخذ بأحشائه ويغلق منه العينين . وصنع لنفسه شاياً . ولكنه كان قد أخذ إناء قذراً ، ليسخن الماء ، فكان الشاي مدهناً حتى الغثيان . ومع ذلك فقد شربه قبل أن يذهب لينام .

وحين خلع حذائه ، لاحظ على يديه اللتين كان الدم قد انسحب منها ، ان
اظافره وردية جداً، ومتسعة ومحنية حتى انها تغطي اطراف الاصابع . انه لم
يسبق له قط ان كانت له مثل هذه الاظافر التي كانت تضي على يده مظهرأ
من الالتواء والانحراف . وكان يحس صدره محصوراً في ملزمة . وسعل وبصق
عدة مرات بطريقة طبيعية بالرغم من ان فمه احتفظ بمذاق دم .

وفي السرير ، انتابته ارتجافات طويلة ، كان يحسها تصعد من أقصى
الجسد وتلتقي عند الكتفين كخيطي ماء مثلج ، بينما كانت اسنانه تصطك من
فوق الشراشف التي كانت تبدو له مبتلة . وكان يخيل اليه ان البيت واسع
والاصوات المألوفة التي كان يسمها كانت تتسع حتى اللانهاية كما لو انها لم تكن
تلتقي جداراً يضع جداً لأرجاعاتها . كان يسمع البحر كاندفاع ماء وحصى ،
وخققان الليل وراء زجاجة الكبير ، ونباح الكلاب في المزارع البعيدة .
وأحس بالحرارة ، فألقى بالاغطية ، ثم أحس بالبرد ، فأعادها . وفي هذا
التأرجح بين عذابين ، وذلك الاسترخاء وهذا القلق الذي كان ينترعه من النوم ،
وعى فجأة انه كان مريضاً . وعراه ضيق إذ فكر أنه قد يموت في هذه الحالة
من اللاوعي ، ومن غير ان يستطيع النظر أمامه . وفي القرية قُرْع جرس
الكنيسة ، من غير ان يستطيع معرفة عدد الدقات . لم يكن يريد أن يموت
مريض . بالنسبة له على الأقل ، لم يكن يريد ان يكون المرض ما هو غالباً ،
انحلالاً وانتقالاً نحو الموت . إن ما كان يوده بعد بلاوعي ، انما هو لقاء حياته ،
وهي مليئة دماً وصعة ، مع الموت ، وليس مواجهة الموت مع ما كان الآن
أشبه بالموت .

ونفض ، فجذب يجهد مقعداً نحو النافذة وجلس وهو ينظري نفسه . وخلف
الستائر الخفيفة ، في الأمكنة التي لم تكن الثنايا تكشف فيها القماش ، كان يرى
نجوماً . تنفس طويلاً وشد على ذراعي مقعده ليهدئ يديه اللتين كانتا ترتجفان .
كان يريد أن يستعيد صفاءه .

وكان يفكر : « هذا ممكن » . وفي الوقت نفسه ، كان يفكر بأن الغاز كان ما يزال مشتعلًا في المطبخ فكان يردد : « هذا ممكن » . كان الصفاء هو أيضاً صبراً طويلاً ، كل شيء كان يمكن اكتسابه والحصول عليه وكان يضرب بقبضته ذراعي مقعده . ان المرء لا يولد قوياً ، أو ضعيفاً أو مقطوعاً ، بل هو يصبح قوياً ، ويصبح واعياً . ان المصير ليس في الانسان بل حول الانسان . ولاحظ إذ ذاك انه كان يبكي . كان ضعف غريب ، نوع من الجبن منبثق من المرض ، يعيده إلى الطفولة وإلى دموعه . فكان يحس برداً في يديه وقرفاً كبيراً في القلب . وكان يفكر بأظافره ، وتحت ترقوته دحرج غدداً بدت له ضخمة . وفي الخارج كان كل ذلك الجمال المنتشر على العالم .

لم يكن يريد أن يفادر حسه للحياة وحرصه عليها . وكان يفكر بتلك الامسيات على مدينة الجزائر حيث يصعد في السماء الخضراء ضجيج الرجال وهم يخرجون من المصانع على نداء الصفارات . بين مذاق الابست ، والزهور البرية في الخرائب وعزلة البيوت الصغيرة المحاطة بالسرو في « الساحل » ، كانت تحاك صورة لحياة كان الجمال والسعادة ، ينتزعان فيها من اليأس وجهه ، وكان باتريس يجد فيها نوعاً من الأبدية الهاربة . لم يكن يرغب في ان يترك هذا ولا أن تكون هذه الصورة قادرة على الاستمرار من دونه . وامتلاً بالتمرد والشفقة ، فرأى إذ ذاك وجه زغرو متجهاً نحو النافذة . وسعل طويلاً . وكان يتنفس بمشقة . وكان يختنق في ثياب الليل . وكان يحس بالبرد ، وكان يحس بالحر . كان يحترق بغضب كبير عكر ، وكانت قبضته مضمومتين . ودمه كله يخفق خفقات كبيرة تحت ججمته . كان نظره فارغاً ، وكان ينتظر الرعشة الجديدة التي ستغمره من جديد في الحمى العمياء . وجاءت الرعشة ، فردته إلى عالم رطب مغلق أغمضت فيه عيناه فأسكتت تمرد الحيوان ، الحريص على عطشه وجوعه . ولكن قبل أن ينام أتبع له أن يرى الليل يبيض قليلاً خلف الستائر ، وان يسمع ، مع الفجر ويقظة العالم ، ما يشبه نداء كبيراً من الحنان والأمل كان يبرر بلا شك

رعبه من الموت ، ولكنه كان في الوقت نفسه يطمئنه بأنه سيجد مبرراً للموت في ما سبق ان كان مبرره الكامل للحياة .
عندما استيقظ ، كان النهار قد قطع شوطاً ، وكان شعب كامل من العصافير والحشرات يغني في الحر . وفكر بأن لوسيان كان لا بد ان تأتي اليوم ذاته ، وكان محطماً فعاد بمشقة الى سريره . وكان مذاق الحمى في فمه وذلك الضعف الذي يحيل الاشياء في عيني المريض أكثر صلابة والكائنات أكثر اكراهاً . واستدعى برنار فحضر ، منهكاً على عادته وصموتاً ، وفحص نبضه ، وخلع نظارتيه ليمسح زجاجهما . وقال : « حالة سيئة » . ثم حقنه حقنتين . عند الثانية ، بالرغم من ان مرسو كان قليل الرهافة ، فقد اغمي عليه . وعندما استعاد وعيه ، كان برنار يمسك قبضته بيد وساعته باليد الأخرى ، وكان يتأمل التقدم المهتز لعقرب الثواني .

قال برنار :

— انت ترى ، إغماء لربع ساعة . إن قلبك يستسلم . وقد تموت ، في إغماء جديدة .
أغمض مرسو عينيه . كان منهوكة ، شفتاه بيضاوان وجافتان ، وتنفسه يصفر .

قال : — برنار .

— نعم .

— لا أريد ان أموت باغماء . انني بحاجة إلى ان أرى بصفاء . انت تفهمني .

قال برنار :

— نعم .

وأعطاه عدة جرعات : « اذا أحسست بالضعف ، فأكسرها وابلعها . انه « ادرينالين » .

والتقى برنار ، وهو خارج ، لوسيان التي كانت قادمة .

— إنك على عادتك فتانة .

— هل باتريس مريض ؟

— نعم .

— وهل وضعه خطير ؟

قال برنار :

— لا ، إنه بحالة جيدة جداً . (وقبل ان يذهب أضاف) في الواقع ،
أنصحك أن تتركه وحيداً قدر الامكان .

قالت لوسيان :

— آه .. لا أهمية لذلك إذن .

طوال اليوم كله ، كان مرسو يحنق . وأحس مرتين بالفراغ البارد العنيد
يحتذبه الى اغشاء جديدة ، ومرتين سحبه الادريينالين من هذه الغطسة السائلة .
وطوال النهار ، نظرت عيناه الداكنتان إلى القرية الرائعة . حوالي الساعة
الرابعة ، بزغ زورق كبير أحمر على البحر وتضخم شيئاً فشيئاً وهو يرشح شمساً
وماء وقشوراً .

كان بيريز واقفاً يحذف بانتظام . وجاء الليل اذ ذاك بسرعة . واغمض
مرسو عينيه ، ولأول مرة منذ الليلة الماضية ، ابتسم . كان قد لزم الصمت .
وكانت لوسيان في غرفته منذ لحظة ، قلقة بغموض ، فأنكبت عليه وقبلته .
قال مرسو :

— اجلسي . تستطيعين البقاء .

قالت لوسيان :

— لا تتكلم . ان هذا يتعبك .

وأتى برنار ، فحقن حقناً وذهب . وكانت غيوم كبيرة حمراء تمر بهدوء في
السماء .

قال مرسو يجهد ، وهو غاطس في غدقه وعيناه شاخصتان الى السماء :

— كانت امي تقول لي ان ارواح الأموات هي التي كانت تصعد الى السماء ،

و كنت منذ هلا أن تكون لي روح حمراء . والآن أدرك ان ذلك في أغلب الاحيان انما هو وعد ريح . ولكنه كذلك رائع .

وبدا الليل ، كانت الصور تتقدم . حيوانات كبيرة خرافية كانت تهز رأسها فوق المناظر الصحراوية . وأبعدها مرسو بلطف من اعماق حثاء . كان يفسح المجال فقط لوجه زغرو بأخوته الدامية . ان الذي سبق ان أعطى الموت سيموت . وكما كان الامر بالنسبة لزغرو ، كانت النظرة الواعية التي كان يلقيها على حياته نظرة رجل . الى الآن كان قد عاش . والآن يمكن للناس ان يتحدثوا عن حياته . ومن هذا الانطلاق الكبير الجامح الذي كان قد حمله الى الامام ، ومن الشعر الهارب خالق الحياة ، لم يكن يبقى الآن سوى الحقيقة التي لا تجاعيد فيها والتي هي بقيض الشعر .

ومن جميع الاشخاص الذين كان قد حملهم في ذاته ككل انسان في بداية هذه الحياة ، من هؤلاء الكائنات التي كانت تمزج جذورها من غير أن تختلط ، كان يدرك الآن أيها قد كان: وهذا الاختيار الذي يخلقه القدر في الانسان كان قد حققه في الوعي والشجاعة . وهنا كانت تكمن سعادته كلها في ان يعيش وان يموت . هذا الموت الذي كان قد نظر اليه بهلع وحشي ، كان يدرك ان الخوف منه كان يعني الخوف من الحياة . كان الخوف من الموت يبرر تعلقاً لا حدود له بما هو حي في الانسان . وجميع الذين لم يسبق لهم ان صفوا الاعمال الحاسمة ليرفعوا حياتهم ، جميع أولئك كانوا يخافون العجز ويمجدونه ، أولئك جميعاً كانوا يخافون الموت ، بسبب العقوبة التي كان يحملها الى حياة لم يسبق لهم ان امتزجوا بها . لم يكونوا قط عاشوا بما فيه الكفاية ، لكونهم لم يعيشوا قط . وقد كان الموت أشبه بحركة تحرم من الماء الى الابد المسافر الذي كان قد بحث عبثاً لينقع ظمأه . اما بالنسبة للآخرين ، فقد كان الموت الحركة المقدرة الحنون التي تمحو وتنفي ، باسمه للعرفان مثل بسمتها للتمرد .

وأمضى يوماً وليلة جالساً على سريره ، ذراعاه على طاولة السرير ، ورأسه بين ذراعيه . ولم يكن يستطيع ان يتنفس وهو مضطجع . والى جانبه ، كانت

لوسيان جالسة تراقبه من غير ان تنبس بكلمة ، وكان مرسو ينظر اليها احيانا .
وكان يفكر بأن أول رجل سيأخذ قامتها من بعده ، سيجعلها ترتخي .

انها ستمنح نفسها وهي متجمعة كليا في نهديها كما منحت نفسها له من قبل ،
وسيستمر العالم في دفء شفتيها المنفرجتين . وكان احيانا يرفع الرأس وينظر
عبر النافذة . لم يكن حليقا . وكانت عيناه المحمرتان عند جوانبها ، الغائرتان
بعمق ، قدم فقدتا ألقيها الداكن وكانت وجنتاه المhoferتان الشاحبتان تحت
الزغب المزرق تبدلانه تماما .

وكانت نظرتة ، نظرة القط المريض ، تستقر على الزجاج . كان يتنفس
ويلتفت نحو لوسيان . عندها كان يبتسم ، وفي هذا الوجه الذي كان يهرب
وينهار في كل جهة ، كانت تلك الابتسامة القاسية الواضحة تخلق قوة جديدة
ورصانة جذلى .

كانت لوسيان تقول بصوتها المنطفئ : « هل تتحسن ، ؟ »

فيقول : « نعم »

وكان يرجع من بعدها الى ليل ذراعيه .

وعند تخوم قوته وصموده ، كان يلتقى لأول مرة ومن الداخل ، رولان
زغرو الذي كانت ابتسامته تفيظه كثيراً في بادئ الامر . وكان تنفسه القصير
المتدافع يترك على رخام طاولة الليل بخاراً رطباً كان يرد له حرارته . وفي
هذا الدفء غير الرديء الذي كان يصعد نحوه ، كان يحس إحساساً أعمق
بالطرف الثلج لاصابعه وقدميه . ان هذا بالذات كان يكشف حياة ، وفي
هذه الرحلة من البرد إلى الحر ، كان يستعيد الحواس الذي كان قد تملك زغرو ،
شاكراً « الحياة التي تسمح له بأن يحترق بعد » . وكان يحس نفسه مأخوذاً
بمحب عنيف أخوي لهذا الرجل الذي كان قد شعر أنه بعيد جداً عنه ، وكان
يدرك أنه ، بقتله ، كان قد عقد معه عرساً كان يشده به الى الأبد . وتلك

المسيرة الثقيلة للدموع التي كانت في نفسه كمذاق مختلط للحياة والموت ، كان يدرك انها كانت مشتركة بينهما . وفي جمود زغرو بالذات امام الموت ، كان يجد من جديد الصورة الخفية القاسية لحياته الخاصة . وكانت الحمى تساعد في ذلك ، ومعها ذلك اليقين المحس الذي كان يملكه ليحتفظ بوعيه حتى النهاية وليموت وعيناه مفتوحتان . لقد كانت عينا زغرو هو أيضاً مفتوحتين في ذلك اليوم ، وكانت دموع تسيل منها ، ولكنه كان آخر ضعف لرجل لم يكن له نصيب في حياته . وما كان باتريس يخشى هذا الضعف . ففي خفقات دمه المحموم الذي كان يتوقف دائماً على بعد بضعة سنتمترات من حدود جسده ، كان ما يزال يدرك ان هذا الضعف لن يكون ضعفه . ذلك انه ، هو ، كان قد قام بدوره ، وكان قد أتم واجب الانسان الوحيد الذي يتلخص في أن يكون سعيداً . ليس لمدة طويلة بلا شك . ولكن لا شأن للوقت بذلك ، انه لا يمكن أن يكون إلا عقبة ، وهو آنذاك ليس شيئاً . كان قد هدم العقبة ، وهذا الأخ الداخلي الذي كان قد ولدته في ذاته ، سيان ان يكون سنتين أو عشرين .

نهضت لوسيان ، وغطت من جديد كتفى مرسو اللتين كان الغطاء قد انزلق عنهما . وارتعش تحت هذه الحركة . منذ اليوم الذي كان فيه قد عطس في الساحة الصغيرة امام دارة زغرو ، حتى هذه الساعة ، كان جسده قد خدمه باخلاص وكان قد فتحه على العالم . ولكنه كان في الوقت نفسه ، يتابع حياة خاصة منفصلة من الانسان الذي كان يمثله . كان قد تابع خلال هذه السنوات تحللاً بطيئاً . اما الآن ، فقد أتم المنهاته ووقف مستعداً ان يترك مرسو وان يعيده الى العالم . وفي هذه الرعدة الفجائية التي كان مرسو يعيها ، كان يسجل مرة أخرى هذا التواطؤ الذي سبق ان منحها كثيراً من المسرات .

وبهذه الصفة فقط ، كان مرسو يعتبر هذه الرعدة فرحة . كان هذا ، في وعيه ، ما كان يجب ، بلا تضليل ، وبلا جبن - وحيداً امام نفسه - وجهاً لوجه مع جسده - وعيناه مفتوحتان على الموت . كان الامر يتعلق بقضية بين

رجال . لا شيء ، لا حب ولا ديكور ، بل صحراء لا نهائية من الوحدة
والسعادة كان مرسو يلعب فيها آخر اوراقه . كان يحس نفسه يضعف . وقد
تنشق جرعة هواء ، وبهذه الحركة هدرت جميع أراغن صدره . كان يحس
ربلتي ساقيه باردتين جداً ويديه عديمتي الاحساس . وكان النهار يطلع .
وامتلاً النهار الذي بزغ بالعصافير والنداءة . وارتفعت الشمس بسرعة ،
وبقفزة وصلت فوق الافق . واكتست الارض بالذهب والحرارة . وفي الصباح
كانت السماء والبحر تتلاطخان بالاضواء الزرقاء والصفراء ، ببقع كبيرة واثبة .
وكانت ريح خفيفة قد هبت ، ومن النافذة كان هواء يحمل مذاق الملح يأتي
ليرطب يدي مرسو . وعند الظهر توقفت الريح ، وتفتح النهار كشمرة ناضجة ،
وعلى امتداد العالم كله ، سال عصيراً دافئاً خائفاً ، وسط موسيقى زيزان
مفاجئة . وتغطي البحر بهذا العصير المذهب كما يتغطي بزيت ، وأعاد الى الارض
المسحوقة بالشمس هبة حارة فتحت وصدت عطوراً من الابست وندى البحر
والحجارة الحارة . ومن سريره ، لاحظ مرسو هذه الصدمة وهذه المنحة ، وفتح
عينيه على البحر الشاسع المنحني ، المتوهج المأهول بابتسامات آلهته . ولاحظ
فجأة انه قد كان جالساً على سريره وان وجه لوسيان كان قريباً جداً من
وجهه . وكان يصعد في داخله بهدوء ، ابتداء من البطن ، ما يشبه حصاة كانت
تسير حتى حلقة . وكان يتنفس بسرعة متزايدة . ونظر الى لوسيان فابتسم من
غير تشنج . وكانت هذه الابتسامة تصدر من الداخل . وانقلب على سريره
فأحس بالصعود البطيء في داخله . ونظر الى شفتي لوسيان المكتنزتين ، ومن
خلفها ، ابتسامة الأرض . كان ينظر اليها النظرة نفسها ، بالرغبة ذاتها .
وفكر : « بعد دقيقة ، بعد ثانية » . وتوقف الصعود ، وحجراً بين
الاحجار ، عاد في فرحة قلبه الى حقيقة العوالم الجامدة .

تمت

عن الرواية

كان نشر « دفاتر البير كامو » قد قرّرتّه عائلة الكاتب وناشروه ، تلبية
لرغبة العديد من الجامعيين والطلبة ، وبوجه عام جميع الذين يهتمون بمؤلفاته
وتفكيره .

إنهم لا يفتتحون هذه المنشورات من دون تحفظات : كان البير كامو قاسياً
على نفسه ، وكان لا ينشر شيئاً باستخفاف ، فلماذا إذن تُعرض للجمهور رواية
متروكة ، ومحاضرات ، ومقالات ، وملفات وحق مسودات لم يكن هو
نفسه قد احتفظ بها كـ « كتابات معاصرة » ؟

بكل بساطة ، لأن المرء حين يحب كاتباً أو يدرسه بعمق ، يتمنى غالباً ان
يعرف كل شيء عنه . واولئك الذين يملكون كتابات كامو غير المطبوعة
يعتبرون تعسفاً مسرفاً عدم تلبية هذه الرغبة المشروعة ورفض السباح بقراءة
« الموت السعيد » أو « يوميات سفر » مثلاً لأولئك الذين يرغبون في ذلك .

إن الجامعيين الذين قادتهم دراستهم أحياناً في حياة كامو ، ليراجعوا كتابات
صباه أو كتاباته التي جاءت بعد ذلك ، ولكنها غير معروفة إلا قليلاً أو التي لم
تكن قد نشرت بعد ، يعتبرون ان صورة الكاتب لا يمكن إلا ان تتلون وتغتني
بقراءة تلك الكتابات .

تكوّن « الموت السعيد »

بقلم جان ساروكي

لن نلجّ في هذه المقدمة على المعطيات السيرية . فأمّ ما ينبغي معرفته سبق ان قدّمه روجيه كيوي في جزئيّ « البلياد » . ان « الموت السعيد » تستغلّ ذكريات الحيّ الفقير ، في « بلكور » حيث قضى اليبير كامو طفولته ، وعمله في السمسة البحرية ، ورحلته الى أوروبا الوسطى ، صيف عام ١٩٣٦ ، واسفاره في إيطاليا عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ وإقامته في المصح ، وحياته في بيت فيشو أو « البيت أمام العالم » ، في أعالي مدينة الجزائر ، حيث استقر في تشرين الثاني ١٩٣٦ . ونقرأ فيها ايضاً بعض الحوادث من حياته الغرامية . فان سنّي علاقاته الزوجية وطلاقه من « سيمون هيا » الذي تم في سلازبورج بعد مناقشة عاصفة ، كل ذلك قد صور هنا وهناك شخصية نسائية ، ليس من السهل تحقيق هويتها ، تلعب هنا دوراً رئيسياً . وتبقى هناك نقاط استفهام ربما محتها ذات يوم دراسة منقبة : من كانت لوسيان ؟ ورولان زغرو ؟ والدكتور برنارد ؟ الخ ...

ويبدو هنا ان إقامة تطابق دقيق بين رواية وحياء ما ، أقل فائدة من رسم تخطيط تكوّن أدبي .

ان أول تنويه دقيق ، « في الدفاتر » عما سيصبح « الموت السعيد » هو

تصميم للقسم الثاني الذي لا يمكن إلا ان يكون لاحقاً للرحلة إلى أوروبا الوسطى .
والمخططات الأخيرة « الموت السعيد » يرجع تاريخها الى عام ١٩٣٨ . واننا نجد
ايضاً اسم مرسو في كانون الثاني ١٩٣٩ ، ولكن « الغريب » هو ما يهم كامو
منذ ذلك الحين . وهكذا فإن « الموت السعيد » كانها قد صممت وحررت من
عام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ . انها معاصرة لأبحاث « الظهر والوجه » في شكلها
الأول ، وأبحاث « الاعراس » في تحويلاتها الأخيرة . وتليها الكتابة الأولى
« كالفولا » .

ولكي تتكون لدينا احسن فكرة ممكنة عن الطريقة التي أعدت بها
هذه الرواية ، يمكننا ان نتفحص أولاً الشكل النهائي للرواية . « الموت السعيد »
تقسم الى قسمين ، كل واحد منها يحتوي على خمسة فصول : « الموت الطبيعي »
ثم « الموت الواعي » ولكن على امتداد مئة واربعين صفحة مطبوعة على الآلة
الكتابة ، لا يحتل القسم الأول سوى ٤٩ صفحة ، اكثر من الثلث بقليل .
وعقدة « الموت الطبيعي » هي قتل رولان زغرو . فالبطل مرسو يقتله في
الفصل الأول ، ويستولي على ماله ، (ويصاب بالبرد) وهو عائد الى بيته .
والفصول التالية هي عودة الى الورا : عن حياة مرسو العادية (الفصل الثاني)
وعلاقاته بمارت وغيرته الجنسية (الفصل الثالث) وحديثه الطويل مع زغرو
(الفصل الرابع) واخيراً حوار كان قد اجراه مع كردونا البراميلي الذي
تروى قصته البائسة (الفصل الخامس) . ولكي نوجز فيما نعطي الحيط الهادي
نقول : إن باتريس مرسو عامل بسيط ذو حياة معدمة ، له جار براميلي ذو
حياة اكثر اعداماً ، وعشيق فتاة كان لها العاجز رولان زغرو العشيق الأول ،
فيه قد يفضلها ، علاقات معه ، ويعرف ، وهو يتحدث ، كيف كوّن ثروته ،
ويستغل هذا البوح ، فيقتله . ويقوم برحلة وهو منهار الصعلة ولكن مليء
الجيب .

والفصول الخمسة « للموت الواعي » تمثل إقامة مرسو في براغ (الفصل الأول) ومتابعة سفره وعودته ، بطريق جنوى ، الى مدينة الجزائر (الفصل الثاني) وحياته في « البيت أمام العالم » (الفصل الثالث) ورحيله الى جبل شنوة حيث استقر في بيت بمواجهة البحر (الفصل الرابع) واخيراً اصابته بداء الجنب وموته (الفصل الخامس) . ولكي نعطي الخط الهادي نقول : إن مرسو ، في براغ ، يحس السعادة تقلت منه . انه يسترد مذاقها وهو يعود نحو الشمس . وإذ يعود الى مدينة الجزائر، يحاول تجربتين متتابعتين لحياة سعيدة : اولاً في حياة مشتركة مع ثلاث صديقات في « البيت أمام العالم » ، ثم في عزلة زهدية ، مخففة بزيارات أمراته لوسيان او بزيارات صديقاته الثلاث في جبل شنوة . ولقد اكتسب السعادة واحتفظ بها حتى في موته وهو يتذكر زغرو .

هذا الموجز السريع للرواية يوضح الموضوع الرئيسي : كيف يكون الموت سعيداً ؟ اي كيف يمكن ان يعيش المرء سعيداً الى خد يصبح فيه الموت نفسه سعيداً .

من هذا المفهوم للعيش الهنيء والموت السعيد ، يبدو القسم الأول ظهر الرواية بسبب فقدان المال ، والوقت والسيطرة العاطفية . والقسم الثاني، بفضل الاستقلال المالي، وتنظيم الوقت وسلام القلب ، هو وجه الرواية : هذا هو، باختصار، محتوى ومعنى « الموت السعيد » في شكلها النهائي .

والتقسيم الى قسمين هو متأخر جداً. فجميع تخطيطات التصميم بلا استثناء، حتى عام ١٩٣٨ ، تشكل ثلاثة أقسام ، والتلمسات لا تقسوم إلا على توزيع الفصول . لذلك فنحن لن ندهش باللاتماثل (٤٩ صفحة مقابل ٩١) الذي ينفجر في التصميم النهائي . والتقسيم المثلث ، كما يشهد في ذلك مشروع معنون « إعادة التوزيع » ، كان اكثر توازناً : فكل قسم كان بإمكانه ان يضم تقريباً عدداً مماثلاً من الصفحات .

والتصميم النهائي يبرز مفارقة راسخة . وليس الأمر كذلك في التخطيطات الأولى . ومع ذلك ، فإن المفارقة ، والتعاقب يبدوان ، على الفور ، النابض الجمالي للرواية ، كما انها نابض فلسفة كامو . وفي ملاحظة يقترح فيها رواية ست قصص :

قصة اللعب الباهر : ترف .

قصة الحي الفقير . موت الأم .

قصة « البيت امام العالم »

قصة الغيرة الجنسية

قصة المحكوم بالموت .

قصة الهبوط نحو الشمس .

يكشف بترتيب العد بالذات ، ثم التعاقب هذا . فالقصص الست يمكن ان تتزوج ثناء . ولكن حتى شهر آب من عام ١٩٣٧ يحاول ان يضاعف مفارقة القطبية بمفارقة الزمن : فبعض الفصول ستكتب بصيغة الحاضر ، وأخرى بصيغة الماضي . وحتى انه حاول ، في تصميم مفصل للقسم الثاني ، ان يجعل الأزمان تتابع وفق تشبيك صارم . وسيتخلى عن هذه الشكلية التي لا تسندها ضرورة داخلية . ولكن اثرأ يظل منها في النص النهائي : فان الفصل المكرس «البيت امام العالم » وهو استحضار سعادة نقية ومتصلة ، ظل مكتوباً بصيغة الحاضر كما كان في المشروع الأولي .

والقصص الست التي ذكرت سابقا بشكل العدة الاولى التي منها ستألف الرواية شيئاً فشيئاً . وبامتناعنا ان نعيد تخطيط تكون الرواية بدءاً منها ومن تحويلاتها وتوزيعها .

فالتصاميم الاولى تؤكد على «قصة البيت امام العالم» الذي يحتل ، مع قصة الغيرة الجنسية «القسم الثاني» . وهذا هو التصميم الأول الذي نقرأه في «الدفاتر» .

القسم الثاني :

أ - في الحاضر .

ب - في الماضي .

الفصل ١ . ١ . البيت أمام العالم . تقديم .

د ب . ١ . كان يتذكر . ارتباطه بلوسيان .

د ١ - ٢ . البيت امام العالم . صباه .

د ب . ٢ . لوسيان تروي خياناتها .

د ١ - ٣ . البيت امام العالم . دعوة .

د ب . ٤ . غيره جنسية . سالز بورغ . براغ .

د ١ - ٤ . البيت امام العالم . الشمس .

د ب ٥ . الحرب . (الرسالة) مدينة الجزائر .

يأخذ بردا ، ويمرض .

د ١ - ٥ . ليل امام النجوم . كاترين .

فالقسم الأول مكرّس اذن ، كما نرى ذلك في تصميم لاحق في آب ١٩٣٧ ،
للعب - المزدوج للحى المتألق الفقير : ما يعنيه اللعب المتألق ، فان خرافة
سيزيف ستكشفه فيما بعد في الثلاثية الدونجوانية ، المهزلة والانتصار . هذا
اللعب يقاوم صروف حياة « الحى الفقير » . وإذ ذاك يرتسم تضاد مزدوج
يفضحه مشروع في شهر آب نفسه ١٩٣٧ :

القسم الاول : حياته حتى الآن .

القسم الثاني : اللعبة .

القسم الثالث : التخلي عن التسويات والحقيقة في الطبيعة والحياة « حتى
الآن » تتضمن الفقر ، ساعات العمل اليومي الثاني ، تفاهة العلاقات الاجتماعية ،

وبالاجمال غط من الوجود الزائف و « اللعبة » التي تشير إليها « الدفاتر » إشارة مقتضبة جداً ، من المفروض أن تعني نوعاً من التأنيق ، تقدماً على الحياة الفقيرة ، اندفاعاً في التلذذ بالذات ، ولكن زيفاً ايضاً. هذا التضاد في النص النهائي « للموت السعيد » يفقد من أهميته ، إذ يكون مخففاً في الحوار ومقتضباً في ترقمي مرسوم. وبالمقابل فإن اكتساب الصدق والصفاء ، بحركة هرب إلى العزلة والطبيعة ، يتمثل منذ التخطيطات الأولى ويبقى حتى آخر لحظة من الإعداد نهاية الرواية وغايتها.

ولكن يبدو أن « الموت السعيد » لا تنتهي في التخطيطات الأولى ، بموت البطل ، فنحن نقرأ في أحد التخطيطات هذه العبارة. « مذاق الموت والشمس » انه ليس سوى مذاق . وفي تصميم آخر ، نرى الموت مجابهاً ولكنه يقع في نهاية القسم الأول . الفصل الأخير « هبوط نحو الشمس والموت » (انتحار موت طبيعي) ملاحظة يحذر تسجيلها . الموت والشمس على صلة فيما بينها . وحين تحمل السعادة ، التي هي اسطورة أخلاقية ، محل الشمس التي هي صورة حسية فإن خطوة حاسمة ستُجاوز نحو المفهوم النهائي . وباستطاعتنا أن نؤرخ هذه الخطوة بشهر آب ١٩٣٧ وبالملاحظة التالية : الرواية : الانسان الذي فهم انه ، لكي يعيش ، عليه أن يكون غنياً ، والذي يمنح نفسه كلها لهذا الكسب المال ، ينتج منه ، ويعيش ويموت سعيداً ، ولأول مرة ، « في الدفاتر » نلتقي بموجز حقيقي « للموت السعيد » . وهنا ، ولأول مرة ، نجد فيها كلمة « رواية » .

الخيط الهادي من الآن فصاعداً واضح : سيكون تمثيلاً مقلوباً للمثل : « المال لا يصنع السعادة » . السعادة بالمال . تصبح الموضوع الرئيسي ، كما يبدو ذلك بوضوح في مقدمة الملاحظة المؤرخة في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٧ :

١٧ تشرين الثاني .

إرادة السعادة .

القسم الثالث تحقيق السعادة .

ولكن في هذه اللحظة تدخل فجأة شخصية زغرو الذي لا يمثل بعد سوى « العاجز » لينير أمام مرسوم مشكلة العلاقات بين المال والزمن ويكشف له حقيقة تعبير مثل آخر : الزمن هو المال . وهذه العبارة صحيحة أيضاً بشكلها المقلوب . المال ، هو وقت سيشكل مادة أساسية من فنه للعيش ، ويدل عليه المقطع الأخير من ملاحظة ١٧ تشرين الثاني :

« بالنسبة لرجل « كريم النسب » ، ان يكون سعيداً ، معناه ان يسترد مصير الجميع لا بإرادة الزهد ، ولكن بإرادة السعادة . لكي يكون المرء سعيداً - يلزمه وقت ، كثير من الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . والوقت انما تسرقه منا حاجتنا إلى المال . ان الوقت يُشترى . وكل شيء يُشترى . ان تكون غنياً ، هو أن تملك وقتاً لكي تكون سعيداً عندما تصبح جديراً بأن تكونه . »

إذن فإن مواد الرواية المختلفة تعود فتتجمع حسب مزدوجة الوقت الضائع والوقت المكتسب . وسيكون الوقت الضائع هو وقت الفقر ، والعمل ، والحياة التافهة : الفصل المكرس لحياة مرسوم سيحمل عنوان « قتل الوقت » وهو عنوات يتناسب والعلاقة مع مارت والمرحلة الى أوروبا الوسطى . وقتل زغرو سيضع حداً لهذه الاوديسة اليائسة للوقت الضائع . والوقت المكتسب سيكون وقت « البيت أمام العالم » ووقت الحرب في الطبيعة . ومن هنا ، على ورقة مخطوطة ، مشروع تصميم من ثلاثة أقسام يصبح الفصل الأساسي منها ، كل مرة ، مهدى للوقت . القسم الأول يحتوي على سبعة فصول ، ابتداء من « قتل

الوقت» تضم حياة مرسو في مغامراته في مدينة الجزائر حتى من عودته براغ (اي الصفحات الممتدة من ١ الى ٧٥ من النص النهائي) كتب كامو: من « قتل الوقت » حتى .. كان نفسه مخلوقاً للسعادة » . هذه الجملة الأخير توجد تقريباً كما هي في الصفحة ٧٥ من النص النهائي : « وأدرك أخيراً أنه كان مخلوقاً للسعادة » .

والفصل الأول من القسم الثاني يحمل آنذاك عنوان « ربح الوقت » - والحديث هنا يتناول « البيت أمام العالم » .

والفصل الأول من القسم الثالث ، يحمل عنوان الوقت الضائع ، وقت العمل ، الى الوقت المكتسب ، وقت البطالة بين فتيات « البيت أمام العالم » المزدهرات ، الى الوقت المستعاد الذي هو وقت التوافق مع الطبيعة في العزلة والموت ، وهذا ما توجزه إشارة موجزة على المخطوطة من الصفحة الأخيرة : « الوقت » يقوم اولاً بكثير من الاشياء ثم يتخلى عن كل شيء . لا يقوم بشيء بشكل صارم . ويتبع سير الزمان وخاصة الفصول (اليوميات ١) إن الوقت الذي أصبح تحت شعار السعادة ، موضوعاً رئيسياً ، يمنح الرواية هيكلها وإيقاعها . وتناوب الحاضر - الماضي ، في التخطيطات الأولى ، لم يكن مستقرباً . والآن ، من الوقت المسحوق في الجزء الاول الى الصيرورة الترجيعية في الجزء الثالث ، ينبغي على تطور منحى الرواية ان يمر ويلتقي بالتعريفات الواهنة ذات النبرات الغنائية .

وهكذا نصل الى آخر تحول للرواية ، يقلصها إلى قسمين . وهذا التقلص يُفسر بسببين :

أولاً ارتباطاً كات كامو لإزاء موضوع الحوادث المشقية والعاطفية . فكان عليه ان يضغطها . وفي المشروع الآنف الذكر ، كان القسم الثاني ، بعد « كسب

الوقت « يعملن » لقاء لوسيان « ثم « رحيل كاترين » ولم يستطع ، أو يريد ، من هذه الزوايا ، ان ينظم ما يكفيه من المواد ثم أصبحت حادثة زغرو أقل تماسكاً من ان تشكل نواة نظام . والهرب الى اوروبا الوسطى ، الذي كان في الأساس مرتبطاً بالغيرة الجنسية ، 'ضم إليها .

ولكن كامو شديد الحرص على اقسامه الثلاثة : ومن هنا ، هذا التصميم أيضا . الأخير قبل « الضغط النهائي » .

القسم الأول :

- ١ - الحي الفقير ..
- ٢ - باتريس مرسو .
- ٣ - باتريس ومارت .
- ٤ - محذوف يكاد لا يقرأ : ب. وأصدقاؤه (٩)
- ٥ - باتريس وزغرو .

القسم الثاني :

- ١ - قتل زغرو .
- ٢ - هرب في القلق .
- ٣ - رجوع إلى السعادة .

القسم الثالث :

- ١ - النساء والشمس .
- ٢ - السعادة الخفية الحادة في تيبازا
- ٣ - الموت السعيد .

العنوان النهائي وجد ، ولكن مطبقاً على الفصل الأخير . وحادثة زغرو ليست بعد في مكانها الصحيح . ويبقى نقل القتل ، في الأخير ، باديء الأمر ، ثم في مطلع القسم الأول . وإذ ذاك أصبح القسم الثاني ، المقصور على الرحلة والعودة ، هزئاً أكثر مما ينبغي . فدمج مع القسم الأخير ، وأقرّ عنوان مشترك « الموت الواعي » الاندماج ، مستدعيًا عنواناً موازياً « الموت الطبيعي » . وبالمقابل ، فالفصول التي كانت تحمل عنواناً خاصاً فقدتته . فالعنوان الذي دعني « البيت أمام العالم » . ثم « النساء والشمس » ثم النساء والعالم » يلي من الآن فصاعداً من غير أخطار ، في الضوء المستهجن بصيغة الحاضر يلي حكاية العودة من براغ .

وهكذا أعيدت كتابة الرواية « باعادة كتابة رواية » ألزم كل مو نفسه في حزيران عام ١٩٣٨ - وقد انجزت ، أو على الأقل ، عدلت ، حتى أصبحت « الموت السعيد » .

لماذا لم تنشر؟ لن نقف هنا إلا على اسباب أدبية بحجة . فالسيد م . كاسكس ، في دراسته عن « الغريب » ، يفترض ان هذه الرواية ، في المشروع المتخيل لكامو ، قد حلت محل « الموت السعيد » ويرى في شهر آب ١٩٣٧ ، اللحظة الحرجة التي انسل فيها خفية موضوع « الغريب » ، فيما كانت تتكون ، وهو يورد هذا النص :

« انسان بحث عن الحياة في المكان الذي توضع فيه عادة (الزواج ، المركز ، الخ ..) يلاحظ دفعة واحدة ، وهو يقرأ فهرست الدرجة^(١) ، كم كان غريباً عن حياته (الحياة كما هي مقبرة في فهرست الدرجة) يعطي الصيغة الأولى للموضوع بالرغم من أنه يتعلق بالموت السعيد .

(١) الدرجة هي الكلمة التي وضعها قاموس « المنهل » مقابل كلمة « المودة » Mode الاجنبية .

هذا الافتراض مقبول . ويمكن تقويته بملاحظة على القيمة الروائية للموت السعيد .

يبدو ان كامو ربما احس ، كلما كان يتقدم في تأليفها ، بالعيب المبطل لروايته الأولى وامكانية روائية اخرى .

انه عمل سيء التأليف ومكتوب بشكل مدهش في آن واحد ، كما يلاحظ ، روجيه كييو . وليس هناك افضل من هذا الكلام . ان صفات الكاتب الانيق العبارة تتفجر هنا ، ولكن ليس صفات الروائي . وكامو يحاول عبثاً ان ينظم فيها ويوحد عناصره المشتتة ، فاية علاقة توجد بين القتل المتخيل لزغرو وحكاية رحلة براغ الواقعية ؟ بين تصوير كردونا البائس وتذكر « البيت أمام العالم » ؟ ان التشتت في النغمات يحمل تشتت الحوادث اخطر فلا نستطيع ان نجد له عذراً استناداً الى حسن مدروس للمفارقة : فاللؤثر ، والبشاشة ، والابتذال ، والجفاف التصويري ، والحرارة الحسية والغنائية الشمسية تتعاقب من غير ان تكون متطابقة . والحوادث اكثر عدداً مما ينبغي واحياناً تستعمل بتكرار نافل ، فبعد موت أم مرسو ، مثلاً ، فرض علينا موت أم كردونا . والأدوار النسائية خاصة ، وزعت توزيعاً سيئاً . ففي « ثلاثية » الحمقات ، تبرز كاترين التي في الأساس - كما تظهر ذلك التصاميم الأولى ، كانت على علاقة مع مرسو . ولكن لوسيان كانت تستطيع ان تتصف بالميزة ذاتها . والتصاميم تنبيء بعلاقة ثارة مع هذه وطوراً مع تلك . ونقرأ فيها كذلك اسم امرأة تدعى لوسيل . ومارت ، كما نرى من ذلك بمقتضى احد التصحيحات ، تحل محلها وتضطلع بقسم من دوري لوسيان وكاترين ، وتكون علاقة الزمن الضائع ، وكاترين علاقة الزمن المسترد . بالطبع ، ليس كامو بوضع مريح مع نسائه . إنهن يؤخرن (تطور) الرواية . إنهن يقدمن تجسيدا أدبياً للمثل : من يطعم بالكثير يفوته اليسير .

ونحس ، في النص النهائي ، جهده ليثبت اختصاصات كل منهن وليحتفظ

بأقارهن او ليدبر دخولهن الى المسرح . والنتيجة عاطلة رديئة : أكان بوسعهم ان ينتج اثرأ أفضل ، لو بذل مزيداً من العمل ؟

ان « الموت السعيد » ، بصفتها رواية ، مدانة في أساسها . فصفة الرواية ، كما نقرأ من كتاب حديث عن النوع الروائي^(١) « تتعلق بالتصور الذي تتخذه الملاحظة الدقيقة وتصحيح او تعميق الواقعي بالمتخيل » ولا تشذ عن هذه القاعدة اية رواية ، بينما في « الموت السعيد » ، تظل عناصر الملاحظة ، اي مقاطع السيرة الذاتية ، تظل متفككة . فذكريات الحلي الفقير ، والمصح ، والبيت امام العالم ، والرحلة الى أوروبا الوسطى ، والوجوه النسائية ، ليست بالمعنى الكيماوي معالجة لتندرج في « كل » في عالم مغلق موحد « شبيه بعالم بروست الذي يتخذه كتاب كامو « الانسان المتمرد » نموذجاً ، وتلك العناصر لا تشكل كلاً الا حين يستعيدوها الخيال الخلاق . بيد ان الخيال الخلاق ، في « الموت السعيد » لا يعمل إلا على مستوى الاسلوب . واختراع الحوادث والاشخاص فقير جداً : فقتل زغرو ، المستوحى من الوضع البشري او الجريمة « والعقاب » وشخصه نفسه ، لا يفضيان الى الحقيقة الروائية . وفي هذه الرواية المستحيلة ، تبقى القيمة فقط للمشاهد الحية ، التي تخرج من وريد « الظهر والوجه » . ولا تتميز بالشكل عن « السخرية » او « الحزن العميق » ، او الذكريات الغنائية التي تنتمي الى ذكريات « اعراس » . ان احسن ما في الرواية ليس روائياً .

هل احسن كامو ذلك بمثل هذا الوضوح ؟ انه لا يعترف بذلك في اي مكان . ولكنه اكثر من محتمل ان شعوره الباطني كفنان على الأقل كان ينبهه الى خطئه ويقوده ، بلا علمه ، في طريق اخرى . ولكي نستعير من جيد تشبيهاً موحياً يورده فنان طبيعى ، لطبيعى ، فان في نقطة « الموت السعيد » يرقانة « الغريب » . وكانت « الموت السعيد » تتابع تكونها الخداع ، وكان مؤلفها يتفنن في اعادة كتابتها واعادة احيائها في جميع اجزائها ، ولكن « الغريب » كمتطفلة موحى بها كانت تستمد افضل مكاسب هذا العمل الذي اعطى ، اخيراً ، بدلاً

(١) « الرواية حتى الثورة » تأليف هـ . كويليه .

من روايه مزيفة ، قصة حقيقية .

واذن فاذننا سننهي هذه الدراسة باقامة توازن موجز بين « الموت السعيد » و« الغريب » . فقد دل روجيه كيبو ان « مرسو هو .. الأخ الاصغر لمرسو » . وأشار الى ان بعض الحوادث والاشخاص الثانويين هم مشتركون للنصين . ولكنه لاحظ الفروق واستطاع ان يكتب : « ان الحكيتين هما بلا ادنى علاقة . أو « الموت السعيد » ليست على الاطلاق رحم « الغريب » : انه كتاب آخر تماماً » .

ومع ذلك ، فبالرغم من فروق الحكيتين الحتمية وطريقة التأليف والغاية ، نستطيع ان نرى ، في « الموت السعيد » ، تجسيدا مسبقا « للغريب » حتى ولو سحبتنا من اللفظة معناها الحياوي ، رحما . ويكفي ، لنقنع بذلك ، ان نقارن بنية الكتابين : فالموت السعيد في آخر تحولها انتهت بقسمين . والمرور من التقسيم الثلاثي الى التقسيم الثنائي يعني بالنسبة لكامو ، العدول عن التقطيع الكلاسيكي ، حيث ترعى عملية تأليف المتناقضات لصالح جدلية اكثر ذاتية توضع فيها المتناقضات ضمن « دائرة صغيرة Court circiut . من وجهة النظر هذه ، لا تبدو « الغريب » الا نسخة مكزوزة « للموت السعيد » فهي مؤلفة من قسمين ايضا ، ونفس عدد الفصول تقريبا (٥٦ مقابل ٥٥) . وتصمم القسم الأول ، في كلا الكتابين ، هو نفسه بطريقة محسوسة . مشاهد من الحياة التافهة ، ثم الحديث مع الرجل مالك الكلب (سلمان أو كردونا) ثم قتل زغرو أو العربي . هذا القتل يدفع البطل من الزيف الى الحقيقة .

فان كلا من القسمين ليس بينهما في الظاهر شيء مشترك . صحيح ان الرحلة الى براغ أو البيت أمام العالم ، وهي عناصر لا تهضم في رواية رمزية ، قد اختفت من « الغريب » . ولكن لتأمل مرسو في عزلته في جبل شتوة ، ومرسو في سجنه في مدينة الجزائر ، فسوف نكتشف تشابها في ايقاع الزيارات التي تسليها ، والفصول التي تشير مشاعرهما ، والوقت غير الوزون الذي يقودهما الى ساعتها الاخيرة . وإذا كان مضيرهما يبدو متباينا جدا لأن احدهما قد ارتكب جريمة كاملة استفاد منها

بينما الآخر ، وهو قاتل لا موهوب ، أصبح فريسة القضاة ، فيجب ان لا ننسى ان مشكلتها كليها هي مشكلة الموت السعيد-«الغريب» او «الرجل السعيد» تحمل في عنوان فرعي مخطوطة واحدة - وانها حلاها كلاهما بطريقة مظفرة ، وهما يمنحان نفسيهما للعالم ويتحرران من الناس .

ولا نفعل هنا إلا ان نقيم تشابهاً تستطيع دراسة جادة ان تعمقه ، شريطة ان تهتم بالمادة اقل من اهتمامها بطريقة هذين الكتابين. وتقول «الغريب» لن نكون بذلك الا اكثر وضوحا . ولكن هل هناك حاجة الى القول اخيراً ، ان «الموت السعيد» ، التي لم ينشرها ، هي وثيقة ، اكثر مما هي عمل ادبي ، وانه يكفيها مجدا ان تتمثل في هذه الوثيقة ، لكي تنضاف الى ملف عبقريته ادلة ايجابية ؟
أننا نترك للقاريء متعة اكتشافها .

مؤسسة جمال الطباعة والتصوير
هاتف: ٢٧٧١٨٤ - ٢٧٦٥٣٨ - بکروت - لبنان



حين صدرت هذه الرواية في باريس احتلت بسرعة رأس قائمة أنجح الكتب . ولم يسبق لهذه الرواية أن نشرت من قبل ، وقد استخرجتها زوجة البير كامو من أوراقه . وبالرغم من أن هناك شبهاً في الأسماء بين بطلي « الغريب » و « الموت السعيد » فهذه الأخيرة تختلف عن تلك كل الاختلاف ، وموضوعها هو البحث العنيد عن السعادة ، ولو كان ثمن ذلك ارتكاب جريمة . وأحداث الرواية تتناول تجربة شاب يعاني مصاعب كثيرة على صعيد الفقر والمريض والحب والرحلات ، ويعيش حالات صراع نفسية ليس هناك أبرع من كامو في تصويرها .